

عبد الرحمن منيف

أمُّ النُّذور

عبد الرحمن منيف

أُم النذور

الطبعة الاولى
2005

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

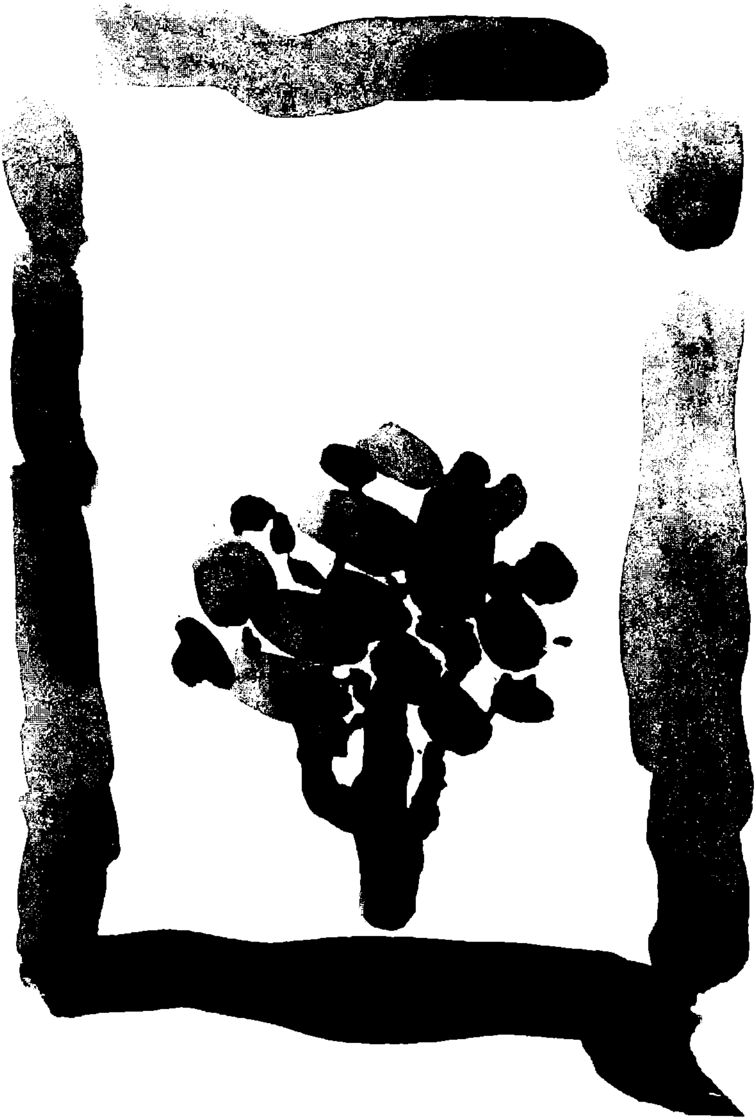
المركز الرئيسي:
بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم
ص.ب: 5460/ 11، العنوان البرقي: موكيالي
تلفاكس: 751438/ 752308
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص.ب: 9157
هاتف: 5605432، فاكس: 5685501
E-mail: mkayyali@nets.com.jo

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية ـ الدار البيضاء:
(الأحباس) ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339
فاكس: 2305726
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma

لبنان ـ بيروت:
الحمراء ـ ص.ب: 5158/ 113
هاتف: (01)352826
فاكس: 343701
E-mail: hassan2@inco.com.lb



1

كانت أشجار الدلب الكبيرة تقوم على طرف زقاق الشيخ مجيب، إلى جانب النهر في أقصى الغرب، وكانت بمكانها ذاك تحدد المدينة كلها من هذه الجهة.

لا أحد من الأحياء يعرف متى وُجدت هذه الأشجار، أو من الذي غرسها، وحتى المسنون، الذين رأوا الكثير، لا يعرفونها إلا مثلما هي الآن: كبيرة، راسخة، قديمة. فإذا وُجد من يقول إن هذه الأشجار كانت أقل حجماً قبل خمسين سنة، لأن أغصانها التي تصل الآن إلى الضفة الثانية من النهر، لم تكن قد امتدت هذا الامتداد كله، فإنه لا يجرؤ على التأكيد أنها لم تكن هناك، على تلك الضفة، قبل هذه السنين الخمسين.

وإذا وُجد من يقول إن أربعة رجال كانوا قادرين على تطويق الشجرة الوسطى، فإن كثيرين يردون عليه مستنكرين أو ساخرين، يقولون: إن ساق الشجرة يختلف من مكان لآخر، فعند سطح الماء يضمر قليلاً، ولكن لا يلبث أن يكبر إذا ارتفع ووصل إلى قامة الإنسان. وإذا استطاع أربعة أن يطوقوا الساق،

فلا بد أن يكونوا قد خوَّضوا في مياه النهر، وإلا فليفعلوا الآن، ولنرى!

وعندما يختلف الناس في تحديد أعمار الأشجار فإن الكبار يقولون بثقة تصل حدود اليقين الكامل: إن عمر الشجرة الوسطى يزيد على المئات من السنين، لأن الأجداد قالوا لأحفادهم إن هذه الشجرة لها من العمر الكثير الكثير، ولا حاجة للإنسان أن يرهق نفسه في تقصّي عمرها، وحتى لو فعل فإنه لن يجد جواباً!

أما اسم هذه الأشجار فلا يختلف الناس عليه كثيراً. يعرفون أنها أشجار دلب، ولكن يفضلون على هذا الاسم أسماء أخرى. ولفرط ما استعملوا أسماء «جارات أم النذور» و«الأخوات السبع» تركوا في نفوس الصغار شكوكاً واختلافات لا تنتهي. فإذا ما التقى الصغار ودار الحديث بينهم عن هذه الأشجار، ظهر ميل في نفوس بعضهم لامتحان معلومات الآخرين، وكثيراً ما تكرر نفس السؤال: «ما نوع هذه الأشجار؟» قال بعضهم إنها أشجار توت بري. وقال بعضهم إنها تين ذكر. وقال آخرون إن بين هذه الأشجار والجن أخوّة.

الأشجار إذن موجودة منذ وقت طويل جداً، وقد أصبح وجودها في حي الشيخ مجيب من ظواهر الطبيعة ذاتها، تماماً كوجود الشمس. فالشمس موجودة كل يوم، ولكن الناس لا يدركون هذا الوجود إدراكاً واعياً ولا يفكرون فيه، وإن كانوا يحسّونه بخفاء، ويعتبرونه ضرورياً لكي تستمر الحياة.

فإذا صادف ورأى الإنسان الشمس في لحظات شروقها توقّف بذهول، وتمتم بكلمات غامضة، ليعبّر عن أحاسيس لا يعرف كيف تنبع من داخله. أما إذا رآها تسقط عند الجبال وتذوب مثل جمرة حمراء فينظر بفرحٍ منبهرٍ كأنه يرى الشمس لأول مرة، وكأنه اكتشف فيها شيئاً خارقاً لم يكن موجوداً من قبل.

كانت أشجار الدلب وأم النذور في الحي مثل الشمس موجودة منذ وقت لا يدركه أحد. وقد أقام الناس بينهم وبينها من الصلات ما جعلها جزءاً من حياتهم. فالمرضى يُحمَلون إلى جانب هذه الأشجار، والنساء اللواتي يردن أطفالاً يذبحن هناك الديوك، والعجائز المسنات يسفحن على جذور أم النذور أنواعاً من المياه الممزوجة بالحشائش المغلية والمساحيق، طلباً لحماية الأبناء واستمرار مودتهم!

قبل أن يدخل النهر المدينة، من جهة الغرب، يتفرع وينقسم، فترى الفروع صغيرة مخضرة متشابكة، وبعض الأحيان متقاطعة، تماماً مثل العروق في يد نحيفة مسنة.

كانت هذه الفروع تشق طريقها بصمت أنيس لا اصطخاب فيه، حتى لا يكاد الإنسان يحس بوجودها، ولا يفكر في عددها، كما لا يتساءل كيف تدخل المدينة وكيف تخرج منها. أما الخضرة المتموجة في قاع النهر، خاصة عندما يقترب من التكية، فإنها تُكسب المجرى أبعاداً غامضة لا تدرك. والجسور الخشبية الصغيرة التي تقوم على المجرى، وفي أنحاء متعددة من

المدينة، لها أسماء كبيرة تنبثق فجأة في ذاكرة الناس لتوحي بعظمة من نوع خاص لهذا النهر، لا تتمتع به الأنهار الكبيرة!

كان النهر في هذا المكان ينزلق بهدوء ليشكل قوساً كبيراً يحدد المعالم بوضوح حاد: ففي ناحية تقوم، داخل سور مهدم، طاحونة قديمة متآكلة البناء، بحجارتها الكبيرة التي ربما كانت يوماً حجارة معبد أو قلعة، أو تشبه بيتاً كبيراً مهجوراً. وتتوسط السور مجموعة من أشجار الجوز، تلقي ظلالاً كثيفة على مساحات واسعة، تصل قريباً من الطريق. وإلى هذه الظلال يلجأ الناس الذين يقصدون الطاحونة، طلباً للراحة، أو يربطون دوابهم ويضعون أحمالها لبعض الوقت، ريثما ينقلونها إلى الداخل أو يحملونها عائدين إلى بيوتهم.

لقد تهدَّم السور في أغلب الأنحاء، ومنذ وقتٍ طويل، حتى أن الأطفال يستطيعون تجاوز الباب بسهولة، مستعملين أكوام الحجارة والتراب التي كانت يوماً جزءاً من البناء، ويهبطون إلى الداخل بسلام. وفي الداخل، جهة الجنوب، تقوم قاعة فسيحة لها باب خشبي كبير تظهر على أطرافه زنانير حديدية صدئة، وفي وسطه مسامير منثورة على الألواح الخشبية السميكة دون نظام. أما وسط القاعة تماماً فتقوم ماكنة الطحين: بيضاء، مغبرة، طاجّة، حتى أن الإنسان لا يستطيع أن يميز لونها وآلاتها، خاصة إذا دخل فجأة، لأن الظلمة تشمل كل شيء، ولا يبددها سوى ذلك النور الباهت الذي يتسرب من نافذتين صغيرتين جهة الجنوب.

إذا تركنا الطاحونة وراءنا وسرنا مع النهر، وقبل أن ينتهي القوس الذي يشكله وهو يدخل المدينة، فإننا نجد تكية الشيخ مجيب، في مكان لا يبعد أكثر من مائة متر عن أشجار الدلب. والمساحة بين التكية والأشجار أقرب ما تكون إلى الأرض الخاوية المتربة، أو تشبه ميداناً مهجوراً، تشغل بعض الأجزاء منه، قريباً من الأشجار، مقاعد خشبية ثابتة، أُقيمت في وقت من الأوقات لتكون مكاناً يستريح فيه الناس، وإلى جانب هذه المقاعد تناثرت مجموعة من الأحجار، صقلتها الأيدي والطبيعة لفرط ما مرّت عليها، فأصبحت ملساء ناعمة وتُستعمل الآن كمقاعد إضافية، فهي تنتقل من مكان إلى آخر حسب ما تقتضيه الحاجة.

أبرز ما في التكية من الداخل قبر الشيخ مجيب. أما من الخارج فقبة كبيرة، مثل نصف الدائرة، ترتاح فوق البناء كله.

كان البناء قديماً، لا يرتفع كثيراً فوق الأرض، وإلى جانبه يقوم بناء آخر، يوحي من النظرة الأولى أنه أحدث منه، ولكنه يشكل جزءاً من التكية أو امتداداً لها، فلو فصل عنها لبدت القبة غير متناسبة مع البناء، فهي أكبر منه، أو كأنها جعلت لبناء آخر مختلف؛ وربما كان البناء كبيراً ذات يوم ثم تداعى وسقط، فجاء من أضاف هذا القسم لكي يتناسب ويستقيم.

لا أحد من الأحياء يعرف الشيخ مجيب، رغم أن القصص التي تروى عنه كثيرة. يقول بعضهم إنه عراقي، جاء واستقر في هذه المدينة، وكان رجلاً تقياً وله بركات لا تحصى، وهو الذي

غرس أشجار الدلب وأقام هذا المزار.

ويقول آخرون إن الشيخ مجيب مغربي. ويُبدون عجبهم الممزوج بالأسف من عدم الاعتراف بهذه الحقيقة، ويستغربون كيف يخطىء بعض الناس ويقولون إنه من العراق. ويذهب بعضهم في تفسير هذا الخطأ إلى أنه وجد ذات يوم رجل تقي من أصل عراقي، ولكن اسمه مجيد، وله قبر معروف، ومن تشابه الأسماء وُلد الخطأ.

أما الشيخ مجيب فقد جاء بالتأكيد من المغرب، عندما كان فتى صغيراً، وفي هذه المدينة نشأ وعاش، وفيها تعلم وأصبح حجة زمانه وصاحب بركات، وطريقته القائمة حتى الآن لها أتباع كثيرون في المغرب.

ويحكي آخرون أن الشيخ مجيب ليس عراقياً ولا مغربياً. إنه ابن هذه المدينة، ولا يُعرف له أصل غيرها. وهؤلاء لا يقدمون أدلّة قاطعة، رغم أن لهجتهم تتسم بالجزم والتأكيد حتى أنه لا يتخللها شك أبداً!

لم يتزوج الشيخ ولم يخلف ذرية. أما الادعاءات التي راجت لبعض الوقت، حول وجود ذرية له، فقط انقطعت وانتهت، لأن عزوبة الشيخ كانت معروفة ومؤكدة. وآخر محاولة من هذا النوع ظهرت قبل ثلاثين سنة، عندما جاء رجل غريب ادعى أن قرابته بالشيخ مؤكدة، وقدم دليلاً لذلك شجرة كان اسم الشيخ مجيب ثاني اسم فيها؛ ولكن الادعاء لم يلبث طويلاً، فقد قيل إن الرجل تراجع. ونقل عنه أنه لم يدّع مثل هذه

القرابة. وقيل أيضاً إن الرجل ترك التكية بظروف غامضة، بعد أن سرق جزءاً من كفن الشيخ مجيب وهرب!

إن خيوطاً خفيةً تربط التكية بأشجار الدلب وما يجاورها من معالم. وهذه كلها اكتسبت مع الأيام اسم الشيخ مجيب، حتى أن بعض الناس لا يعرفونها إلا بهذا الاسم، ولا يعترفون بالأسماء الجديدة التي أُطلقت عليها. فسوق الخضار والمدرسة ومخفر الشرطة والمختار ومحطة الباص وغيرها من معالم أصبحت تُعرف بهذا الاسم. وفي وقت من الأوقات كثرت أسماء الرجال والأطفال الذين سُمّوا باسم الشيخ مجيب. ولكن هذه الأسماء بدأت تقل بموت الكبار، وإن أُطلقت بين فترة وأخرى على الأطفال المنذورين.

عند باب التكية تماماً تقوم شجرة عجيبة، لا يتجاوز ارتفاع ساقها قامة إنسان قصير، أو قامة صبي قبل البلوغ. فإذا نظرت إلى الساق وجدتها مكتنزة صلبة. أما لونها فأقرب ما يكون إلى البني القاتم، الذي تتخلله لمعة كامدة. كما تتميز بالاستقامة والنعومة اللزجة لفرط ما امتدت إليها الأيدي ولامستها الأفواه.

كانت الساق إذا وصلت إلى قامة الرجل تتفرع تفرعاً غريباً، فتظن أن الصلة بينها وبين الفروع قد انعدمت أو أصابها خلل كبير، إذ تقوم فوق الساق، وبشكل مفاجىء، كومة كبيرة من الفروع كأنها كانت مختبئة في قالب صلب، ثم اندلقت سريعة حادة عندما لامست النور، فهي أشبه ما تكون الآن بشعر منفوش أو بكومة من الأشواك تقوم بإهمال وتحدٍّ!

عندما تفترق الفروع عن الساق تأخذ بعض ملامحها، فتكون أوّل الأمر مستقيمة صلبة، لونها أقرب إلى لونه، مع اختلاف يزداد تدريجياً ما امتدت وابتعدت. ثم يبدأ اللون الأخضر يظهر بوضوح في نهاية الفروع، التي تتمزق بسرعة وتتحول إلى مجموعة من الأغصان القصيرة المتشابكة، وهذه كلها تشكل مع الأوراق الصلبة الصغيرة مظلة تلقي على باب التكية ظلالها أغلب ساعات النهار.

كانت الشجرة هكذا يوماً. ولكن إذا نظرت إليها الآن وجدتها أكثر ما تشبه عروس الغجر، بالزينة المضطربة المفرطة التي تملأها. كما أنها تقف وحيدة على باب التكية، وقد تحولت لفرط ما أضيف إليها من الخرق الملونة والخيوط والأثواب البالية الممزقة. ولا تستغرب إذا رأيت أغطية رأس متنوعة، يبرز من بينها طربوش. وهذه الأشياء كلها ربطت إلى الشجرة بإحكام، أو أُلقيت عليها بإهمال واضح، فلا تعرف من مجموع ما ترى أشجرة هذه أم فزاعة زرع ضخمة، وضعت في ذلك المكان لتخيف طيوراً كبيرة تأتي من أقاصي الدنيا. تريد أن تلتهم التكية والنهر وأشجار الدلب!

هذه الشجرة المقدسة، أو كما يسميها أعداؤها «أم الخرق»، هي نفسها التي يسميها المؤمنون بالشيخ وبركاته «أم النذور». تقوم على باب التكية منذ وقت طويل. يحيط بها حوض دائري صغير، لا يزيد عن ساقها إلا قليلاً. وعلى أطراف الحوض صفّت حجارة ملساء. ويؤكد الحاج درويش

وأناس آخرون أن الولي صاحب البركات الشيخ مجيب ذاته، هو الذي غرس الشجرة وأقام حولها الحوض!

يقول كثيرون إن الشجرة كانت تحمل ثمراً. ويقولون إن الشيخ لم يأكل إلا من ثمرها. ويضيف أناس آخرون أنه منذ السنة التي مات فيها الشيخ لم تعد تثمر، ويفسرون ذلك بأن الشجرة حزنت وتحول ثمرها إلى الداخل، إلى جذورها، التي تمتد بعيداً حتى تصل إلى القبر داخل التكية.

أما النساء فيروين قصصاً لا تنتهي عن ثمار هذه الشجرة «كانت ثمارها أكثر من أوراقها» «كانت الثمار بحجم البيض» «وهذه الثمار تشفي من الأمراض وتعيد المسافرين وتكشف المسروقات».

وحتى الآن، إذا جلست النسوة في باحات البيوت، أيام الصيف والخريف، وهبَّت ريح من جهة الغرب حاملة معها رائحة الرطوبة، تتنسم كل امرأة رائحة أم النذور، وتغمض عينيها وتتمنى!

والقصص التي تروى عن الأماني المستجابة كثيرة ومتداخلة، حتى أن بركات الشيخ وأم النذور أصابت الجميع!

«أم حسن ولدت ولدين بعد سبع بنات عندما أخلصت نيتها للشيخ وقدمت النذر». «فاطمة الخرساء أصبحت تنطق ببعض الكلمات وتفهم كل ما يقال لها منذ أن أكلت لحم الهدهد الذي أعطته لها الحاجة نعيمة، وبعد أن بيتته ليلة كاملة عند أم

النذور». أم مصطفى، أم رجب، زهرة، حسنة المعتوهة، وقصص غيرها كثيرة! وتظل هذه القصص تعاد وتكرر، وتستمع إليها النسوة وكأنهن يسمعنها لأول مرة. ثم يخيم الصمت، فلا ترى سوى الشفاه تتحرك بهمسات غامضة، والأيدي ترتفع إلى الوجوه، والعيون تتطلع إلى السماء. وفي بعض الأوقات تنتهي هذه القصص بالأدعية والنذور، وتنصرف النسوة على عجل، وكأنهن دبرن أمراً لا يحتمل التأجيل أو الانتظار!

* * *

لا تظهر التكية وأم النذور، ولا تبدو بركاتهما في الوقت الحاضر، إلا إذا أضيف إليهما الحاج درويش. فالحاج درويش رجل قارب الخمسين. طويل إلى درجة أن ظهره انحنى منذ وقت مبكر، وانحناؤه الآن يزداد كلما تقدم به العمر. له لحية طويلة خفيفة، كأنها مجموعة خيوط منسابة على شكل مثلث مقطوع الرأس. وجنتاه بارزتان في وجه مستطيل. تقوم فوقه عيناه الصغيرتان المفتوحتان بدهشة وحواجب مستغربة باستمرار، وكأنها تلال مزروعة. أما الأنف فيشبه قطعة من الحديد المطروق: طويل نحيف، يتدلى ويشكل مع الوجنتين حفراً عميقة في نهاية الفكين. والشفاه مفرطة في الغلظة، كأن فيهما ورماً!

لم يزر الحاج درويش مكة، ولا رأى الكعبة. ولكنه حاج أكثر من أي حاج آخر. وقد دخل في قناعة الناس أن صفته هذه منذ الولادة. لذلك لم يشكّوا يوماً ولم يتساءلوا، لأن الصفات

التي تُميِّزُ الحاج تجعله بنظر المؤمنين بالشيخ نجيب امتداداً لذلك الولي المهيب المقدس، أو الصورة الحاضرة له. وإذا استغرق الإنسان في التفكير وجد أن الأماني المستجابة والرضا الذي يعم حياة الناس واستقرار أحوالهم، حصلت كلها بفضل الولي الجديد!

يعيش الحاج درويش في غرفة إلى جانب التكية. ليست الغرفة الملتصقة بالتكية تماماً، لكنها تقع ضمن الحرم الداخلي. ضيقة، واطئة، ليس فيها سوى نافذة صغيرة في أعلى الجدار. أما بابها فلا يتيح للإنسان الدخول إلا إذا أحنى رأسه!

تساءل بعض الكفرة (وخالي واحد منهم، كما يقول أقرباء أبي) عن السبب الذي دعا الحاج لأن يسكن في هذه الغرفة، مع أن الغرف الثلاث الأخرى أوسع منها، وتطل على الباحة الداخلية، ويقول هؤلاء في تفسير ذلك إن كنزاً مطموراً بداخلها.

أما المؤمنون فيقولون: العادة وحدها تفسر سلوك الحاج (وقيل التواضع). فعندما كان الحاج شاباً ولأسباب لا يعرفها أحد، جاء إلى التكية، واستقر فيها، بعد أن قامت بينه وبين الحاج رمضان، الذي سبقه في خدمة التكية، صلات وثيقة، انتهت بأن أعطاه الغرفة الداخلية، فاستقر فيها. ومنذ ذلك الوقت لم يفكر في تغييرها. وقد وجد من قال له إن الغرفة الداخلية أصلح لسكناه، وإن احترام ذكرى الموتى، وخاصة الحاج رمضان، لا تمنع من استعمال الغرف الأخرى، التي لم ينم فيها! ولكن الحاج درويش رفض أن يناقش الفكرة كلية.

ولما ألحّوا عليه قيل إن غماً أصابه. وبدا الغضب واضحاً جداً على وجهه!

لا يعرف أحد للحاج أقرباء. ولا يعرف أحد كيف يعيش في غرفته الصغيرة. ولكن قلّما فات إنسان في الحي سماع صوته خلال ساعات الليل والنهار، كانوا يسمعونه يتلو الأدعية بصوت غامض لا يميزون عباراته. وكانوا يرونه خارجاً من التكية أو داخلاً إليها، بعد قيامه بجمع الفطرة والزكاة، أو بعد مشاركته في الصلوات على الموتى وحضور مجالس الفاتحة. كانوا يرونه دائماً وهو يتمتم، وسبحته الطويلة تتحرك مثل أرجوحة حسب حركة الجسم، ولكن بشكل معاكس لحركة الساقين، فإذا استقر في غرفته، سُمِعَ دعاؤه من جديد. وغالباً ما كان يعقب الدعاء بكاءٌ، يبدأ أول الأمر هادئاً، ثم لا يلبث أن يرتفع ويزداد حتى يصبح نشيجاً متصلاً، وبعد ذلك ينقطع فجأة!

يردد أناس كثيرون أن الحاج لا يستطيع أن ينام قبل أن يبكي، فإذا اشتد بكاؤه وتواصل، فإن نومه يطول، وقد يمتد يوماً أو يومين، ولكن حالة مثل هذه لا تحصل كثيراً!

ويخبر آخرون أن الحاج لا ينام إلا نادراً؛ أما في فترة الصمت التي تمتد يوماً أو يومين فيكون متصلاً مع أسياده. وقد نقل أنه شوهد كثيراً وهو يهز رأسه دون توقف، حتى إذا انتهى استطاع أن يعرف أشياء كثيرة. وفي هذه الاوقات بالذات يمكن أن يساعد كل صاحب حاجة!

وقد قيل مرة إن الحاج دل على قاتل، بعد أن مضى على

الجريمة أكثر من سنة. وهذا تم بعد أربعين يوماً من نوم متصل، لم يُعرف خلالها أي شيء عن الحاج، ولم يره أحد!

هذا هو الحاج درويش الذي لا يعرفه سكان الحي وحدهم، وإنما تمتد معرفة الناس به إلى أحياء بعيدة. والحاج نفسه يعرف كثيراً من سكان حي الشيخ مجيب، ولكن لم يكن يحفل بالناس، ولا يحب أن يختلط بهم. وفي المرات القليلة التي جلس في جمع كبير، أو تحدث مع أناس كثيرين، ضاقت روحه، ولاحظ الجالسون أن حالة خاصة تطغى عليه: كانت عيناه تجحظان وتحدقان في الفراغ، وفمه يتحرك حركات متناوبة مع حركة الحنجرة، وكأنه يبتلع شيئاً، ثم يحتقن وجهه وتبرز العروق في رقبته حتى تصبح مثل حبال مشدودة، وأخيراً، وغالباً ما يحصل هذا، ينقلب على ظهره والزبد يتطاير من فمه. أما جسده فإنه يرتعش ارتعاشاً عنيفاً ثم يتشنج، ويروح في غيبوبة طويلة، لا يصحو منها إلا بعد أن ينتفض مثل حيوان مذبوح فيضرب رأسه بالأرض ويتمرغ بالتراب.

كان الذين يرونه لأول مرة في مثل هذه الحالة يصيبهم الفزع، أما الذين رأوه من قبل فكانوا يهجمون عليه، ، يكتفون يديه ورجليه بقبضات قاسية، ولكنها حنونة، ثم يصبّون عليه الماء ويدلكون وجهه وصدره، فإذا أفاق أخذ يبكي بكاء عالياً متصلاً، ويرفض أية مساعدة تقدم إليه، ويدخل إلى التكية ويغيب أياماً لا يُسمع له خلالها صوت. فإذا خرج من جديد كانت ملامحه قاسية وقد تغيرت تماماً، فهو أصفر الوجه زائغ

النظرات، حزين حزناً ظاهراً. وإذا بدأ يقرأ من جديد كان صوته مبحوحاً، وكأن فيه شرخاً أو مرضاً!

كان تقدير الكبار من الرجال والنساء يزيد عندما يرونه أو يسمعون أنه وقع «بالساعة»، وكانت أفكارهم تذهب بعيداً فتتصور الحاج وقد اتصل بأجداده وأسياده، وأصبح بذلك أكثر قداسة! أما الذين اعتبروا الحاج مريضاً أو مهبولاً، فإن حالات الصرع هذه، كانت ترسخ اقتناعهم بمرضه. وكان بعضهم يجاهر بذلك (ضمن الحدود التي يشترطها المؤمنون به) أما إذا اقترح أحدهم معالجته أو إرساله إلى المرستان، فإن موجة من الغضب تسود وتمنع استمرار أي حديث، وكأن ذهابه نهاية للحياة والبركة. ورداً على مثل هذا التجديف كان الكبار، خاصة من النساء، يحملون إليه عطايا كثيرة، تقدم بصمت دون أن يحس بها أحد، ويبدو الحرص واضحاً في اختيار أنواع من الأطعمة التي قد تفيد في تقويته وشد عظامه!

ما فائدة هذا الحاج؟ وما هو عمله؟ وما تفسير الحرص عليه؟ أسئلة لا يجرؤ على طرحها إلا الشباب الغض، الذي لم يعرف الحياة ولم يختبر التجارب، والذي ينظر إلى كل شيء باستهانة وتحدٍّ. أما الرجال الذين عركتهم الحياة ورأوا الكثير، فإنهم يفكرون بطريقة أخرى، ويطرحون على أنفسهم أسئلة من نوع آخر. كانوا يسألون: كيف ستكون الحياة إذا أصبحنا ذات يوم ولم نجد الحاج درويش؟ أي ولي جديد يمكن أن تخلقه الحياة لكي يقف إلى جانب الشيخ مجيب وأم النذور؟ ألا يتهدم

الصرح الذي بنته الأيام وداولته الحياة من الآباء إلى الأبناء، جيلاً عن جيل؟

كانت مثل هذه الأسئلة تشغل البال، ويحاول كل فريق أن لا يصل إلى نهاية فيها، لأنه يعجز عن إقناع نفسه، أو إقناع الآخرين، أو كأن مجرد التفكير فيها يطرح مشكلة آثمة قد تصيب الناس بالأذى!

* * *

بعد التكية بمسافة قصيرة تنتشر بيوت حي الشيخ مجيب. بيوت طينية متساوية الارتفاع، متشابهة، تتلاحق وتتشابك ولا تفصل بينها سوى الأزقة الضيقة، حتى يظن من ينظر إليها من بعيد وكأنها كتلة واحدة. وهذه البيوت لا تختلف عن بعضها إلا اختلافات يسيرة، ففي الداخل تقوم أشجار الليمون والدوالي. وتنتشر في باحاتها أنواع عديدة من النباتات التي تعشق الظلال والرطوبة فتبدو بأوراقها الخضراء وكأنها ألواح صلبة مدهونة لتوها بالزيت. كانت هذه النباتات شيئاً مهماً لبيوت الحي، يتبارى الأغنياء والفقراء في جمعها والعناية بها، فهي تصطف في المداخل وعلى الأدراج وعلى حواف الأسوار، وحتى على النوافذ. وكانت هذه النباتات تخلق جواً عفناً يألفه الإنسان ويعتاد عليه، خاصة أيام الصيف، لأنه يولد رطوبة توحي بالاسترخاء. أما على أطراف الشبابيك فكانت تقوم نباتات الريحان والنعناع وأنواع أخرى من النباتات، تنقلها النساء مرات متكررة في اليوم الواحد لتجنبها الشمس الحارة!

كانت غرف هذه البيوت تنتشر على الباحات الداخلية، بحيث تطوقها من جميع النواحي تقريباً. وهذه هي الحال حتى في البيوت الميسورة التي لا تحكي عن نفسها من الخارج، ولا يميزها الغريب بسهولة. ففي هذه البيوت تقوم بحيرات ملونة وسط الباحات. أما تلك التي سكن فيها أصحاب مهن متواضعة فقد كانت بحيراتها تخلو أغلب الأحيان من الزينة، وإن كان ماؤها يتدفق، دون توقف، مثلما الأمر في بيوت الميسورين! مع أن الناس في حي الشيخ مجيب يتميزون بالتواضع والبساطة، أياً كانت الحياة التي يعيشونها!

والعادة نفسها جعلت الناس في هذا الحي يستيقظون قبل شروق الشمس، فيذهب الرجال إلى جامع المنارة ليصلّوا الفجر. والصغار يُتركون في فراشهم مكرهين، أما النساء فإنهن يبدأن بتحضير الإفطار، قبل أن يعود الرجال. وما تكاد الشمس تطل على الحي، حتى يكون الجميع قد انتهوا من الأكل واستعدوا ليوم جديد!

يذهب الرجال إلى دكاكينهم التي لا تبعد، أغلب الأحيان، أكثر من نصف ساعة، سيراً على الأقدام. أما الأطفال، حتى سن الثانية عشرة، فإنهم يأخذون طريقهم إلى كتّاب الشيخ زكي الملحق بالجامع.

إن جامع المنارة والكتّاب والشيخ زكي تنتصب في ذاكرة الناس، هادئة أو مضطربة، قوية أو أصابها الذبول، لأن لكل إنسان في الحي، علاقة بهذه المعالم، التي إذا أضيفت إلى

التكية وأم النذور وأشجار الدلب، شكلت بداية الحياة ونهايتها لسكان الحي.

فالجامع الذي يقوم بين البيوت، والذي تشبه منارته كوز الذرة الخشن، يحتل مساحة كبيرة تزيد على مساحة أربعة أو خمسة من تلك البيوت مجتمعة، كما يقول الكبار، ولكنه لا يختلف عنها إلا اختلافات يسيرة، فبابه العريض يتسع لدخول رجلين أو ثلاثة في وقت واحد. والبركة الكبيرة، وسط الباحة، تتدفق مياهها باستمرار، وقد صممت بشكل يتيح لعشرة رجال أن يتوضأوا حولها. ثم الجزء الأمامي المسقوف من باحة الجامع، والذي يشكّل مظلة تقي المصلين حرارة الشمس. وأخيراً القاعة الكبيرة والمحراب. وقد صفت بمهارة تتجسد في الزجاج الملون الذي يزين الشبابيك، والحفر الدقيق الناعم لخشب المحراب، رغم ما أصابه من قدم وتلف!

إن الحي تميز بجامعه، ليس باعتباره أكبر الجوامع في المدينة، ولكن هذا الاعتزاز نشأ على مرور الأيام.

هكذا علّم الآباء أبناءهم، وقالوا إن هذا الجامع مزار لا يفضّل عليه أي مزار، والناس يقصدونه من أماكن بعيدة، ليصلّوا فيه قبل أن يتوجهوا إلى التكية وأم النذور. وتساءلوا: أي جامع في المدينة يشترك مع جامعنا بمثل هذه الصفات التي تصل حدود القداسة؟

أما الغرباء الذين يزورون الحي، ويقدمون النذور للشيخ مجيب، فإنهم ينظرون إلى الجامع بدهشة يمازجها التساؤل.

كانوا يقولون: يستطيع حي الشيخ مجيب بناء مسجد يليق بهذه المقدسات المباركة، التي لو وجدت في مكان آخر لظهرت أكثر جلالاً وجمالاً. ولكن تبقى الأشياء التي نراها مقدسة ولها بركات خاصة!

2

الناس في حي الشيخ مجيب ليسوا من طبيعة واحدة، مثلما هي الحال في كل الدنيا. وإن أمراً واحداً قد يراه اثنان بشكل مختلف، بل أكثر من ذلك الأمر ذاته قد لا يراه الإنسان بنفس الشكل إذا نظر إليه بعد فترة، أو بظروف مختلفة.

فالجامع وأم الخرق والشيخ زكي وأمور الحي كلها، كانت تبدو راسخة بجلالها وصدقها ذات يوم لهذا الفتى الذي كان قد فتح عينيه فرأى الطيور تقفز بسرور فوق أشجار الدلب والجوز، ورأى النهر بمائه الداكن وكأنه يحمل أسرار الأماكن البعيدة. ثم إذا سار قليلاً وتوقف عند أم النذور رأى النسوة يربطن الخرق والخيوط، وقد غشى الدمع عيونهن، وصعدت الزفرات من صدورهن حارّة معذبة. ورأى الشجرة، وقد زالت عنها الصلابة والخرق البالية، وأصبحت مثل إلٰه يبتسم بطيبة، ويضع راحته الطرية على الرؤوس المتعبة. وفي لحظة تتحول الأمنيات إلىٰ رجال عائدين من أسفار بعيدة، إلى نساء ينفضن الأغطية عن الأسرّة بعد مرض طويل، إلى ضحكات فرحة تنبع من قلوب

الزوجات والأمهات، عندما يعود الرجال من أعمال اليوم الشاقة.

هذا الفتى الذي رأى ذلك كله، أو تصوره في خياله، بدأ يعيش لحظات جديدة منذ أن اصطحبه أبوه ذاك الصباح إلى كتّاب الشيخ زكي!

* * *

عندما كنت أسير أنا وأبي، نحو كتّاب الشيخ زكي، نظرت حولي بلهفة إلى كل شيء. وشعرت بحب تجاه هذه الأشياء، وراق لي أن أبتسم. أما كلمات أبي فقد ذابت أول الأمر، ثم طغت على عقلي مرة أخرى، قال لي، ويده الثقيلة تمر فوق رأسي:

- أنت مثلي، يا ولدي؛ تشبهني في كل شيء، فلا تخيب أملي.

عندما دخلنا إلى الكتّاب تدحرج الشيخ زكي نحونا، تدحرج مثل كرة، والابتسامة تسبقه. وبعد أحاديث لم أفهم إلا جزءاً منها، أمسكني أبي من أذني وجرني قليلاً، وهو يقول للشيخ:

- مثل إخوته. اللحم لك والعظام لنا.

انفرجت أسارير الشيخ وهو ينظر إلي. استغربت ذلك، واستغربت أكثر تلك النظرة القاسية وهو يقول لأبي:

- لا تخف، اترك لي الأمر وسترى!

كانت تلك أول مرة أرى فيها الكتّاب من الداخل. كان

بارداً وضيقاً. أما الشيخ زكي فبدا أقصر من أبي بكثير. وعيناه تدوران دون توقف، في وجه مكتنز غليظ.

الكلمات التي سمعت الشيخ يقولها لأبي ترسبت في قلبي مثل حجر كبير يسقط في ماء ساكن. قال الشيخ:

- لم نعد نعيش، يا حاج، إلا من هؤلاء العفاريت. وأشار إلى الأولاد؛ ثم غير لهجته وتابع: لم تعد الأيام مثل قبل. حتى الزكاة لم يعد أحد يعطيها يا حاج. ولولا أمثالكم، من المحسنين الذين يخافون الله، لمتنا من الجوع.

ابتسم أبي وهو يسمع كلماته، ثم رفع يده ووضعها على كتفه، وقال:

- ابشر يا شيخ. إذا علمت الأولاد وربيتهم على الدين، فلك ما تريد!

ويرد الشيخ بانفعال:

- سأبذل كل ما أستطيع، وسيكون هؤلاء الأولاد خير خلف لخير سلف. ويصمت قليلاً ثم يقول: إن شاء الله لن يخيب أمَلَك يا حاج.

ويقول أبي وقد امتلأ رضاً:

- البركة فيك يا شيخنا. المهم بالنسبة لي التربية. التربية ثم العلم!

وبكلمات متأنية حازمة يقول الشيخ:

- التوفيق من عند الله.

ظلت الكلمات ترن في أذني مثل أجراس مجنونة. ولأول مرة رأيت أبي وقد استطال وجهه، والجرح الصغير الغائر في ذقنه ينزف دون توقف، ثم يسيل الدم على الأرض. وبدا لي كأني أراه لأول مرة. «إنه ليس أبي لا أعرفه»، ثم بدا لي رجلاً قوياً قاسياً لدرجة أن الشيخ كان يبتسم له طوال الوقت، خوفاً منه.

ولم أعد أعرف شيئاً. اختلطت في رأسي الأفكار والصور، ولم يبددها جواب أبي، عندما سألته، ونحن نبتعد عائدين:

- أبي هل أنت أكبر من الشيخ زكي؟

نظر إليّ نظرة طويلة متسائلة قبل أن يجيب. ثم قال:

- لا. الشيخ أكبر.

- لماذا إذن يخاف منك؟

وبدهشة سألني:

- ومن قال لك إنه يخاف مني؟

- لم يقل لي أحد، ولكني رأيته ينظر إليك مثلما تنظر أمي!

- وهل أمك تخاف مني؟

- لا أعرف، ولكنها تقول لنا دائماً ألا نرفع أصواتنا عندما تكون موجوداً في البيت!

- وعندما لا أكون؟

ولم أعرف ماذا أقول. سرنا معاً حتى وصلنا السوق.

* * *

في المساء، عندما عاد إخوتي سألتهم عن تلك الكلمة الملعونة. سألتهم عن اللحم والعظام، فتضاحكوا ولم يقل سامي سوى كلمات قليلة. قال:

- استعد. سيضربك الشيخ حتى تموت، ولن يبقي منك سوى كومة من العظام!

لم أنم تلك اليلة. تمنيت لو أموت. حزنت كثيراً وكدت أبكي. ثم فكرت في الليل أن أنهض من فراشي لأضع خرقة في أعلى مكان من أم النذور، وأطلب إلى الشيخ مجيب أن يمنع الشيخ زكي من ضربي. وتمنيت لو أمرض. أو لو يمرض الشيخ. ثم تجرأت وقلت لو يموت. ولكن لماذا يحرّض أبي الناس الغرباء كي يضربوني؟ لم أفعل شيئاً. والله لم أفعل شيئاً. لقد أخطأت كثيراً عندما قلت لأمي إني لن أبقى في البيت بعد اليوم. لقد قرأت مع سامي، وحفظت، وقلت لهم كلهم إني أريد أن أذهب إلى الكتّاب.

أحسَّ أن حرارة الغرفة في تلك الليلة الخريفية أكثر مما يحتمل. شعر أنه يختنق، ولم يعرف ماذا يفعل. هل يكفي المرض ليمنعه من الذهاب إلى الكتّاب؟ ولكن كيف يمرض؟ فكر ألا يأكل، وتذكر أحاديث أمه وهي تحذره من البرد. وحلم في وقت من الأوقات أن الشيخ زكي بجثته الضخمة قد رماه على الأرض، وداس عليه. داس على رقبته وهو يحملِ عصا غليظة، في رأسها مسمار، وينهال عليه ضرباً في كل مكان، على وجهه، على فخذيه، على رأسه، وأن دماءً غزيرة انبثقت

من فمه، ورأى نفسه، والدماء تسيل منه، يرفع سبابته اليمنى، وبحركة لا تتوقف يقبلها ويضعها على جبينه، وصرخاته الصغيرة الحادة لا تتوقف: «التوبة، التوبة، التوبة».

استيقظ من نومه فزعاً. كانت أمه بوجهها الضامر الحزين، تنحني عليه وتمسح بيدها حبات العرق عن جبينه. ولم يستطع أن يرى النظرة الحانية المشفقة في عينيها. لم تكن نظرة حزن، كانت نظرة لا يعرف لها اسماً! تناولت أمه كوب الماء ورفعت رأسه، وشعر أن طعم الماء أقرب إلى الملوحة. وسمع صوتها بعيداً، بعيداً، يقول له:

- غداً يا بني ستكون أشطر إخوتك. لقد كبرت. يجب أن تذهب إلى الكتّاب. الحياة في البيت بين النساء لا تناسب الرجال.

وشعر أنه يفهم كلمات أمه، ولكن لم تكن أكثر من كلمات. هل تستطيع أمه أن تفعل شيئاً؟ ومرت في مخيلته صورة الشيخ زكي وصورة أبيه وهو يقول له اقتله، اسحقه، لا نريد لحماً! ثم تراءت له صورة فيضان النهر في الشتاء الماضي؛ وتوقف طويلاً وهو يتذكر صورة الجنود المتعبين الذين مروا قبل أيام، مروا وهم يبكون.

سأل أمه:

- هل الشيخ زكي يضرب الأولاد؟

- يضرب الأولاد الذين لا يحفظون دروسهم، أو الذين يعذّبون أهلهم!

وفهم من كلمة دروسهم الآيات التي يقرأها إخوته. إنه يقرأ معهم، يعرف الآيات. حاول أن يستعيدها، ولكنه لم يتذكر شيئاً تلك اللحظة. بدت له الكلمات ثقيلة، غير مفهومة، وقال إنها دون معنى!

- سأحفظ دروسي يا أمي.

- أنت صغير. الشيخ لا يضرب الصغار.

- ولكن أبي قال له أن يضربني!

ولم تجد غير ضحكة باهتة تحاول من خلالها أن تذيب مخاوفه. وعندما تمددت إلى جانبه سمع صوتها يهمس في أذنه:

- غداً تتعلم القراءة والكتابة وتقرأ للجيران رسائلهم. سوف تقرأها لهم، أليس كذلك؟

- إخوتي سيقرأونها لهم. وبعد لحظة صمت أضاف: أمي، لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب!

ردت عليه بصوت بدا له معادياً:

- يجب أن تتعلم القراءة والكتابة، لم يبق أحد إلا وتعلم!

وتأكد في هذه اللحظة أن أمه تتخلى عنه. إنها لا تحبه، وإلا لماذا تركته يواجه الشيخ وحيداً؟ إن كلامها مثل كلام أبيه. وسخر من نفسه وهو يعيد كلمات أمه «تقرأ رسائل الجيران» لا يريد أن يقرأ لأحد. وابتعد عنها قليلاً. كان يرغب في تلك اللحظة أن لا تمسه. ولم يكن يريد أن ينظر إليها. إنه الآن وحيد، وحيد تماماً. ووجد نفسه يسحب اللحاف ويغطي وجهه، ثم يبكي!

وهو نائم سمع أصوات أطفال يبكون. كانوا يبكون وهم ينظرون إليه. ورأى الشيخ زكي يشمر عن يديه والسكين بين أسنانه، ثم يحمله فوق رأسه ويلقي به على الأرض، ويجثم على صدره، وبعد لحظات ينفجر الدم من عنقه، والأطفال لا يكفّون عن البكاء. عندما انفجر الدم هذه المرة لم يحس بالخوف. أحس براحة عميقة.

في صباح اليوم التالي، وهو يسير مع إخوته، كان يتصور أن الجميع ينظرون إليه. كانت نظراتهم تمتلىء عداوة وسخرية. وفي هذا الصباح شعر أنه ينفصل عن كل ما حوله، وأن عداءً يتكون ويكبر في قلبه تجاه الشيخ وأمه وأبيه، تجاه أم الخرق والنهر والتكية، تجاه المهبول والعالم. وشعر أخيراً بعداوة تجاه نفسه. عض على شفته السفلى بقسوة وضرب الأرض.

كانت نظراته مستقيمة تحدق في اللاشيء. وكانت رغبة قوية تطغى على قلبه: رغبة أن يضرب شيئاً، حتى لو كان هذا الشيء الأرض التي يسير عليها. وضرب!

* * *

3

نصف الباب الخارجي لكتّاب الشيخ زكي يظل مفتوحاً أغلب ساعات النهار، وخلف الباب، على بعد خطوة، ستارة لا يُعرف لونها الآن. لقد حالت من الشمس والريح، فأصبح لونها أميل إلى الصفرة الكامدة ثم إلى السواد الترابي.

كانت الريح تعبث بالستارة دون توقف. تلفّها حول درفة الباب المغلقة من الخارج، ثم تتركها تسقط. وفي حركتها التي لا تنتهي إلى الخلف وإلى الأمام، كانت تصطدم بشجرة الليمون، وتلقي قسمها الأعلى حولها، فتبدو الشجرة مثل امرأة مدثرة. وعندما تهوي مرة أخرى، وتحملها الريح إلى الباب، كانت تضرب وجوه الأولاد وأجسادهم وهم يدخلون إلى الكتّاب.

إلى اليسار، وراء الدالية وأحواض الزرع، تقوم غرفتان يستعملهما الشيخ زكي لسكناه. أما في الجهة اليمنى، على امتداد المسجد، فتقوم غرفة واسعة لها شبابيك عالية وحديد متشابك، وعلى أطراف الشبابيك أصص الريحان، وهي عبارة عن صفائح

من التنك متفاوتة من حيث الحجم والأشكال، تبدو صدئة محنية الجوانب، وتستعمل مثل حواجز توضع أمام الشبابيك عندما تفتح كي لا ترتد! أما سقف الغرفة فكان عالياً، وفي وسطه عمود خشبي ضخم يتدلى منه حبل طويل.

كانت غرفة الكتّاب خاوية إلا من الحصائر، وإلى جانب الباب، ناحية اليمين، تقوم دكة خشبية ترتفع شبرين فوق الأرض، عليها فراش أقل عرضاً منها، ويجلل الفراش جلد ماعز أسود، أما لونه الآن فرمادي قريب من البياض!

إذا دخل الإنسان الغرفة تفاجئه رائحة حادة نفاذة، ليست رائحة النعناع والريحان، ولا رائحة الأشجار، وإنما هي خليط من الأنفاس والعفونة وأنواع العطر التي يستعملها الشيوخ، وهذه الرائحة تعلق في كل ذرة من الأنف، ثم تبدأ تتلاشى تدريجياً، لتعود مرة أخرى مع دخول الشيخ، فيعبق جو الغرفة من جديد، ويخلق ما يشبه الدوار.

إذا كان الوقت صيفاً أو ربيعاً، وفي الأيام الأولى من الخريف، تفتح الشبابيك وتوضع أمامها صفائح الزرع، فتتسرب رائحة الطبيعة والنهر حتى تمحو الرائحة الأولى، فلا يحس بها أحد. إلا إذا غادر مكانه واقترب من الشيخ!

أما في أيام الشتاء، فتلف الكتّاب رائحة أخرى ثقيلة، تجعل التنفس عسيراً مرهقاً، إذ تختلط رائحة العطر برائحة الأرجل والجوارب، فيتولد منها جو كريه؛ ورغم أن الشيخ

استعد لمثل هذا الجو، إذ وضع كيساً من الخيش في مدخل الغرفة، وأمر الأولاد أن ينزعوا أحذيتهم خارجها، فإن هذه الرائحة أشد ما تكون نفاذاً عندما يدخل الإنسان من الخارج! حتى إن الشيخ نفسه يحس بها فيطلب فتح الباب والشبابيك ليدخل الهواء ويتجدد، وعندما يمر الهواء بارداً نشيطاً، تضطرب حركة الأولاد وتتغير، لاتقاء البرودة، وليملأوا رئاتهم بالهواء الجديد. وبعد أن يتأكد الشيخ أن الجو لم يعد ثقيلاً، مثلما كان، يمد شفتيه المزمومتين ويرفع أرنبة أنفه إلى أعلى، ويجر نفساً أو نفسين، ثم يطلب إغلاق الباب والشبابيك مرة أخرى.

الأولاد في الدكان يعرفون أماكنهم، فيدلفون إليها مسرعين، ولا يغيرونها إلا بعد أن يجتازوا امتحاناً عسيراً. وفي حالات أخرى، غيّر الشيخ أماكن بعض الأولاد، لأمور غامضة! وهذه الأمور لم يفهمها أحد على وجه التأكيد، ولم يذكر أحد عنها شيئاً، وإن ظلت مجالاً للتساؤل فترة طويلة!

كان الأولاد، وهم يدخلون، يتحاشون أن تكون أصواتهم عالية، أو أن تكون حركاتهم مكشوفة، لأن الشيخ في مكان ما يراقبهم، يختبئ وراء أحواض الزرع، أو ينظر من زاوية الباب. ويؤكد أولاد كثيرون أن الشيخ تسلق الشباك ذات مرة، وكانت نظراته تنفذ من وراء الزجاج حادة حمراء؛ أما العرفاء فكانوا يلعبون دوراً قذراً، كانوا عيون الشيخ وآذانه التي ترى كل شيء وتسمع كل شيء، ثم تنقل إليه أموراً كثيرة. أموراً وقعت وأخرى لم تقع!

يجلس الأولاد الكبار إلى اليمين، ويسمي الشيخ هؤلاء الصف المتقدم، أما هم فإنهم يحبون أن يسمّوا أنفسهم الصف العالي. وبعضهم إذا سئل يقول الصف الثالث. أما وسط الكتّاب فيجلس أصغر الأولاد، قبالة الشيخ تماماً. وعلى جهة اليسار يجلس أولاد الصف الثاني.

كان هذا النظام مقدساً، لا يجرؤ أحد على تجاوزه أو تغييره. فإذا انتظم الأولاد في أماكنهم بدأ العرفاء بتسجيل الحضور والغياب. وبعد أن ينتهوا، يدخل الشيخ زكي.

والشيخ زكي، قامة قصيرة لدرجة أن طوله وعرضه متساويان، وجهه أحمر مكتنز، عيناه واسعتان وتدوران بلا توقف، ولهما بريق حاد مخيف.

كان الشيخ يلبس ثوباً عريضاً يختلف لونه باختلاف فصول السنة. فإن كان الفصل صيفاً لبس ثوباً أبيض هفهافاً ولا شيء غير ذلك. أما في الأيام الباردة، فكان يلبس ثوباً رمادياً وقد لفّ على وسطه حزاماً من قماش أصفر باهت، تتخلله عروق صفراء أشد وضوحاً من أرضية الحزام؛ وكان يضع على رأسه طربوشاً في بعض الأوقات: في الصباح عندما يدخل إلى الكتّاب، أو عندما يخرج إلى السوق. وما تبقى من وقت كان عاري الرأس بصلعته اللامعة التي تنث عرقاً لا ينقطع في كل فصول السنة، حتى في أشد أيام الشتاء برودة.

ومن عادة الشيخ أن يلف على يده منديلاً أبيض اللون، له أطراف زرقاء، وكان يستعمل هذا المنديل لتجفيف العرق، فإذا

خرج إلى السوق فرده على رأسه تحت الطربوش. وقد نقل بعض الأولاد أنهم رأوه يضع المنديل فوق الطربوش. ولم يصدق الكثيرون هذه القصة، لأنهم لم يروا الشيخ هكذا ولو مرة واحدة. وظل الأمر يثير نقاشاً، وانتهى على شكل مقنعْ إلا ذات يوم ماطر، عندما جاء والد أحد الأولاد فقام إليه الشيخ، بعد أن وضع الطربوش ووضع فوقه المنديل، ليتقي المطر!

حين يدخل الشيخ الغرفة تتقدمه كرشه الكبيرة أولاً، ثم تلوح عصاه وهي ترتفع وتنخفض، وكأنه يتوكأ عليها، مع أنها لا تلامس الأرض إلا نادراً. ثم يبرز وجهه مقطباً عابساً، ولا يكاد جسده يتجاوز الباب حتى يكون الأولاد قد انتصبوا مثل المسامير.

ينظر إليهم دون أن يتفوه بكلمة، ثم يتجه رأساً إلى الدكة، فيخلع نعليه ويجلس بطريقة مضحكة وهو يردد: بسم الله الرحمن الرحيم. فإذا اطمأن بجلسته، رفع العصا مشيراً إلى الأولاد كي يجلسوا. وتسمع الحركة والاضطراب، ولكن لا تدوم إلا لحظة، ثم يخيم الصمت من جديد!

لقد أصبحت عادات الشيخ قانوناً مع الأيام لا تخدشه الأحداث اليومية، فهو لا يتغير إلا إذا وقعت أمور كبرى، كأن يتوفى أحد، أو يأتي الطوفان. وبعض الأحيان عندما يسقط الثلج. أما غير ذلك فلا يترك في ذاكرة الشيخ اهتماماً أو تأثيراً!

كان الشيخ بعد أن يطمئن في جلسته، ينظر إلى الأولاد

نظرة طويلة متأنية. كان يبدو هادئاً أول الأمر، ثم تبدأ الكلمات تتراشق كأنها المطر:

- أسود.. أسود، يا قربة الزفت، ارفع رأسك، لا تنظر إلى الأرض، انظر إليّ. الناس تنظر إلى الملوك!

- وأنت يا نعمان ابن أحمد آغا، قل لأبيك الخميسية في وقتها. أو ليفتش لك عن شغلة!

أين هو حرامي القبور (ويروي أن سعيداً وأباه سرقا غرفة دعاس، حفار القبور، ولكن تبين في وقت متأخر أن زوجة دعاس هي التي سرقته، إذ لم تمض فترة حتى هربت وأخذت معها الفراش والنحاس. وقد اتهم دعاس، في البداية أبا سعيد، عندما رآه أكثر من مرة يتجول بين القبور، بعد الغروب. ولكنه تراجع عن اتهامه بعد هرب زوجته، ولكن هذا التراجع تم أمام عدد محدود من الناس) وعندما يتأكد الشيخ من وجود سعيد، الذي ينظر إليه بعينين خائفتين يقول: عيون حرامية. وينظر إليه بسخرية وقد مط شفته، ثم يلتفت إلى الناحية الأخرى!

- إن شاء الله حفظت دروسك يا ابن المسعدة؟

ويهز الصغير رأسه بالإيجاب وقد انقلب وجهه فأصبح بلون الدم. وينظر إليه الشيخ وابتسامة ساخرة تملأ وجهه وهو يقول: سوف نرى، هذا كتّاب الشيخ زكي، وليس كتّاب الشيخ عبده أو كتّاب بيت فنتيرة. قل لأبيك أن يشتري لك حبلاً وتذهب إلى سوق الجمعة لتصبح هناك حمّالاً!

بعد أن ينتهي الشيخ من حفلة الشتم، يسأل العرفاء إن كان لديهم شيء: هل غاب أحد؟ هل حدث شيء أمس بعد الانصراف؟ فإذا ما انتهى، بدأ يستعد: يخلع طربوشه ويضعه مقلوباً إلى يمينه، يُخرج من جيبه علبة السعوط ويفتحها بتأنٍّ، يلتقط كمية بإبهام اليد اليسرى والسبابة، ويغلق العلبة. فإذا اطمأن أمسك بالعصا يلوح بها، ويأتي صوته عميقاً مهدداً:

- هل حفظ الجميع دروسهم؟

- أي نعم

- القرآن الكريم؟

- أي نعم

- الحديث؟

- أي نعم

- الأقوال المأثورة؟

- أي نعم

- الحساب؟

- أي نعم

ويردد بقسوة ساخرة: أي نعم.. ها.. أي نعم. ويأخذ نفساً ثم يقول سوف نرى ماذا تعني أي نعم!

وفجأة يغير نبرة صوته. يصبح الصوت مهدداً مخيفاً:

الدرة خلقها الله وقسم لها رزقاً. أي نعم.. ها؟ أريد أن

أرى النعامة ترفس في بطن التنبل! وتنفرج شفتاه عن أسنان صفراء، فتبدو ابتسامته قاسية تنغرز في اللحم، ويهز العصا مرة أو مرتين، دلالة التهديد، ثم يضيف: اليوم سنرى قسمة من؟

ويتنشق السعوط على مهله، مرتين أو ثلاث مرات، ونسمع صوتاً مشحوناً بالتقوى والمسكنة والتهديد:

بسم الله الرحمن الرحيم.

ويبدأ اليوم في الكتّاب.....

* * *

4

أشار سامي إلى مكان قريب، بين الصغار، وطلب مني أن أجلس، ومن ذاك المكان رأيت الغرفة عارية، باردة، لا تشبه أي غرفة أخرى. ورأيت الشيخ قريباً لدرجة أني كنت أسمع أنفاسه وهي تتردد.

أما نظراته فقد مرت على وجوه الأولاد مثل نفحة نار حمراء قاسية. شعرت أن كل عضلة في جسدي تنتفض، تنفر من مكانها، وكأن يداً تنتزعها، فتحول كل شيء فيَّ إلى قلب يخفق، وسيطر عليَّ الخوف. لم أعد أستطيع أن أتنفس، لم أعد أستطيع أن أنظر إلى مكان ثابت. هربت بنظراتي إلى الأمام، إلى الخلف، رأيت وجوه الأولاد صفراء بلون التراب. ومن الزاوية التي حاولت أن آخذها لأنظر إلى ما حولي، من هذه الزاوية تراءى لي الشيخ، عندما كان يحرك فمه، كأنه يمضغ أذن الولد الذي كان يجلس أمامي من جهة اليسار. رفعت رأسي لأتأكد، فالتقت عيوني بعيونه!

ليتني لم أرفع رأسي. ليتني لم أنظر إليه. لو أن هذا لم

يحصل لمرّت الأمور بسلام، ولكن تلك النظرة كلفتني الكثير!

إذ لم تكد تنتهي هزات العصا، حتى سمعت الشيخ يسأل عن الولد الجديد. كانت نظراته مصوبة إليّ، ولكنه يتظاهر بأنه لا يراني. تطلعت إلى سامي، تطلعت إلى رؤوس الأولاد، تطلعت إلى الباب المفتوح، ولكن أصواتاً صغيرة كانت تقول لي:

- قف. أنتْ.. قف. أنتْ.. أنتْ.

وترافقت الأصوات مع نعرات في جنبي. أردت أن أقف، لكن لم أجد في نفسي ذرة من قوة. كنت أحس بتعب يمنعني من الحركة. واستبد بي الغثيان. شعرت أني ضعيف ووحيد. تلفتُّ أريد أن أرى إخوتي، ولكن لم أرَ شيئاً، إنهم الآن يخفون رؤوسهم مثل الأرانب المذعورة، أما البارحة فكنت أشعر أنهم قريبون مني لدرجة الالتصاق. أين هم الآن؟ لماذا لا يفعلون شيئاً كيف أدافع عن نفسي؟

فكرت أن أقف. قلت لنفسي يجب أن أقف. ثم وجدت شيئاً في داخلي يمنعني. فكرت أن أعاند، أن لا أستجيب. قلت لنفسي: من يريدني يجب أن يشير إليَّ، أن يقترب مني، وتساءلت: ألا يوجد غيري تلميذ جديد؟ لماذا ينظر إليَّ بهذه القسوة؟ ماذا فعلت؟ وتمنيت لو أن إنساناً واحداً معي!

وقفت. كانت يداي وراء ظهري، وعيناي تنظران إلى الشيخ. رأيته مثل كتلة شحم، كتلة كبيرة مشوهة. حاولت ألا أرتجف. ابتلعت ريقي، وبصعوبة قلت:

- نعم

- ما هو اسمك؟

سألني الشيخ بجفاء، أردت أن أجيب، لكن سؤالاً مجنوناً انبثق في رأسي فجأة: ما هو اسمي؟ هل أنا سامح؟

لكن الشيخ لم يتركني لأفكر. نظر إلي بعداوة وسأل:

- ما هو اسمك؟

- سامح.

خرجت الكلمة من فمي مضطربة بصوت ضعيف. شعرت أن عيون الأولاد مثل مسامير تندق في جميع أنحاء جسمي. وأن أي كلمة من الكلمات التي سأقولها سوف تسقط مثل حجر في بركة ساكنة، ولم ترق إجابتي للشيخ، تظاهر أنه لم يسمع، وما هي إلا لحظة حتى انفجر بعدها الصوت، قوياً مخيفاً:

- انطق.. ما هو اسمك؟

صمت لحظة، وهو يقلب شفتيه وعينيه، ثم تساءل، وكأنه يتحدث إلى غيري:

- ما له هذا الحمار؟

لم أسمع غير كلمة حمار. أحسست بالسقف يسقط فوق رأسي، والجدران تنهار عليَّ. أما الأرض فقد أصبحت لينة تتحرك تحت أقدامي، حتى لتكاد تسجنني. ودون أن أفكر في شيء وجدت نفسي أبكي.

كانت الدموع تنحدر من عيني، لا أعرف لماذا. أما نظراتي فقد تركزت على الشيخ، تمنيت في تلك اللحظة لو أن عيوني

تقدر على حرقه. لم أكن أملك سوى نظراتي. كانت سلاحي الوحيد، وكنت أريد أن أفعل شيئاً، أن أنتقم!

أحس بنظراتي المتحدية، رغم الدموع، فما لبث أن مد شفتيه باحتقار، وقال:

- اقعد داهية تسمّك!

ولم أجلس كما أراد. تباطأت، كانت تلك آخر وسيلة للمقاومة!

التفت الشيخ إلى الأولاد، وبصوت حاقد سأل:

- من يقرأ الحكمة؟

ارتفعت الأيدي، ورافقتها حركة الأجسام المتطاولة. نظر إلى الوجوه طويلاً، ثم التفت فجأة إلى جهة لم ينظر إليها من قبل، ومد عصاه وقال:

- أبا الطبيخ.. اقرأ

وقف ولد كبير كان يجلس في آخر الكتّاب. بدا لي الولد كبيراً لدرجة أنه يستطيع أن يضرب الشيخ، أن يقتله. كانت عيناه تضيقان وهو ينظر إلى اللوح، أما جسده فكان يتميز كأنه يهتز. يقرأ لنفسه، وبعد أن تمتم بشفتيه طويلاً، خرج صوته:

- من علمك حفراً، أصبحت عبداً.

وبعصبية رد عليه الشيخ:

- يا خنزير، يا كلب أعور، اقرأها مرة ثانية مثل الأوادم، وقبل أن تقرأها اقرأ ما فوقها!

وبهيئة مهبول محاصر بدأ من جديد:

- بسم الله الرحمن الرحيم. وتوقف لحظة ثم أكمل: من علّمك حرفاً أصبحت عبداً.

- ولك يا خنزير، يا أعمى، لهْ، لهْ، أكبر من بقرة. أين عيونك يا أعمص؟ لكن الحق معك عيونك لا ترى سوى الأكل. وتوقف لحظة ثم زفر وغيّر صوته بصبر نافذ: اقرأها مرة ثانية.

- بسم الله الرحمن الرحيم. له. له.

- الله يخزيك يا مهبول يا ذيل الأفعى. أنت قصبة فارغة، أنت حمار أجرب. حتى حمار السقا أفلخ منك. صار طولك طول الحيط وحتى الآن لا تعرف أن تقرأ حرفين. قل لأبيك أن يشتري لك سرجاً ورسناً ويحمّل عليك الماء.. يا حيوان.

والتفت ناحية ثانية، وأشار إلى ولد صغير يجلس في مقدمة الصفوف وقال:

- اقرأ.. اقرأ لهذا الحيوان لعله يتعلم. واستدرك وقد غيّر لهجته: لكن ليس في الأمر فائدة، العلم في الصغر كالنقش في الحجر.. أما هذا الجحش البلدي فمن سيعلمه؟

ووقف الولد الثاني، وبصوت منغوم كريه بدأ يقرأ ويترنم:

- بسم الله الرحمن الرحيم. وتوقف لحظات، ثم تابع بلهجة خطابية: من علمك حرفاً أصبحت له عبداً، وقبل أن يكمل القراءة تحرك الشيخ واستعد، وما كاد ينتهي حتى قال له:

- أحسنت. عفاريم. وتطلع نحو الولد الأول الذي ما زال غارقاً في الذهول، لا يعرف أين أخطأ وقال:

- أصغر من أولادك. اقعد. الله يقصف عمرك، الله يخزيك!

وتتابع الأولاد يقرأون الحكمة، واحداً بعد الآخر؛ وبعد أن انتهوا بدأوا يذهبون إلى اللوح ويعودون. كانوا يخطون رسوماً قبيحة ليس لها أي معنى. كانوا يخطونها ثم يمحونها، والشيخ يردد دون تعب: بعده، بعده. فلما انتهوا من الكتابة بدوا مثل أشباح وهم يصرخون صراخاً حاداً موصولاً. وكأنهم يشتمون أو يعوون وأيديهم ترتفع وتنزل في كل لحظة دون معنى. لم أفهم شيئاً مما قالوه. كانت الكلمات مثل طبول تدق في رأسي، وشعرت أن شيئاً في داخلي يغلي. شعرت بالكراهية، ولكن لا أعرف تجاه من!

في وقت ما بدا الشيخ متعباً، فتوقف. ثم فتح علبة السعوط وتنشق، وطلب إلى أحد الأولاد أن يأتيه بكوب ماء. وبعد أن استراح وفكر طويلاً وهو ينظر في أنحاء الغرفة وعبر النوافذ، انتقل إلى مجموعة أخرى من الأولاد، ولكن دون اهتمام هذه المرة.

وسمعت الأولاد من جديد يصرخون. كانوا يقرأون، ثم وقفوا واحداً بعد آخر. وبحركات رتيبة بلهاء كانوا يمدون أيديهم، وكأنهم يحاربون أو يهددون، ولكن التعب استبد بالشيخ، فلم يعد يسمع أو يهتم بما يُقال. كان يبدو بعيداً، كأنه

في عالم آخر. ينظر إلى الوجوه دون أن يراها. يسمع الأصوات ولكن دون أن يفهم شيئاً!

وفجأة تغير كل شيء. نفض الشيخ رأسه وصرخ:

- اخرس.. اه يا خنزير، تخطىء بكلام الله؟ بكلام الله! سوف أقطع لسانك. تعال إلى هنا. سأجعل منك حطبة سوداء. سوف أهري بدنك. وقال يخاطب نفسه، وقد تغيرت لهجته: أعرفك دابة، لكن أباك يريد أن يجعل منك آغا. هذا مستحيل.. هل تتحول الحمير إلى بشر؟

طلب من الولد الصغير أن يخرج. وخرج الولد مذعوراً يتعثر! وما كاد يصل الدكة حتى انهال عليه ضرباً. ضربه على يديه، على رجليه، على جنبه. كان وقع العصا حاداً، والولد يحاول أن يهرب منها. كان يهرِّب يده، يرفعها أقصى ما يستطيع، يقربها من وجه الشيخ، ينفخ فيها، يسحبها بسرعة، والضربات لا تميز مكاناً. تنهال دون توقف. وتنحدر دموع الصغير، تغمر وجهه. وبدت يداه حمراوين وكاد يتفجر منهما الدم. والكلمات تخرج من فمه مضطربة متداخلة:

- كنت مريضاً يا سيدي الشيخ. الله يخليك يا سيدي الشيخ. أبوس يدك. سوف أحفظ الدرس غداً. جربني يا سيدي غداً. والله العظيم كنت مريضاً. أستطيع أن أسمع الدرس السابق!

والشيخ ينظر إليه بلذة وهو يتلوى. لم يسمع أية كلمة، وبين عصا وأخرى كان يصرخ:

- الله لا يخليك. الله يقصف عمرك. أنا لا أفهم مريض أو غير مريض. الدرس هو الدرس. غصباً عنك سوف تتعلم. يا خسارة الخبز الذي تأكله. نعم. نعم سوف تتعلم. هذه العصا تعلم الحمار!

بعد أن تعب الشيخ، وانحدرت حبات العرق غزيرة على جبينه وشفتيه، توقف. تنفس بعمق، والولد في مكانه لا يعرف هل انتهى العقاب أو لم ينته. وبعد فترة طويلة من الصمت القاسي، قال الشيخ:

- قف على الجدار يا خنزير. ارفع يديك ورجلك اليمنى!

وانزلق الولد بسرعة. توجه إلى الحائط. وقف وظهره إلى الأولاد، ويداه مرفوعتان فوق رأسه، والرجل اليمنى مرفوعة مثل كلب يوشك أن يبول!

إن قلبي ينخلع مع كل ضربة. شعرت بالألم في يديّ وجنبيّ. تصورت أن جميع الأولاد جبناء. وإلا لماذا يقفون صامتين؟ من أين لهذا الرجل الحق بأن يضرب ويضرب دون أن يقول له أحد شيئاً؟ إن الآباء لا يملكون هذا الحق. أبداً لا يملكون. وكلام أبي لا يمكن أن أصدقه. لحمي وعظامي لي أنا ولا يستطيع أحد أن يأخذ شيئاً! إن لحم الصغار وعظامهم لهم. الكبار لهم عظامهم ولحمهم.. وهذا الخنزير يتغذى من لحم الأولاد، وإلا لما أصبح سميناً هكذا. لماذا يضرب الأولاد بهذه القسوة؟

هذا الولد لا يريد أن يتعلم. نعم لا يريد. وأنا لا أريد. لا

أريد أن أقرأ للجيران رسائلهم، لا أحد يجبرني على قراءتها. ولكن لماذا يضرب الشيخ بهذه القسوة ولا أحد يحتجّ؟

لقد أحسست بالضربات في كل مكان من جسدي. لم يضرب هذا الولد وحده. لقد ضرب الجميع، ضربني، ضرب إخوتي، ضرب جميع الأولاد. وإلا لماذا نظر إلينا هكذا؟ كان يضرب الصغير وينظر إلينا!

أخذ الألم يزداد في كل موضع من جسدي، أحسست بالخدر يسري من يدي إلى وجهي، إلى كل جزء. كانت معدتي تؤلمني. تندفع إلى فمي. شعرت برغبة كبيرة لأن أتقيأ، لكن ماذا أقول للشيخ؟ ابتلعت ريقي مرة، ابتلعت ريقي مرة ثانية، ولكن الألم يزداد ويقوى. نظرت إلى أخي سامي أريد منه أن يساعدني، ولكني رأيته في تلك اللحظة يربط عقال أحد الأولاد بمنديل ولد آخر. كان يربطهما بحذر، وشعرت أن كل شيء يطبق عليّ، يؤلمني. ماذا لو ضرب الشيخ أخي! هل أسكت؟

تاهت أفكاري. اختلطت. لم أعد أفهم شيئاً أبداً. شعرت أن سامي يتحول إلى حجر، ولم أجد أحداً في العالم كله يستحق أن أحب. سوى ذلك الولد الذي يقف الآن ووجهه إلى الجدار! إننا الآن نواجه نفس العذاب، نتعرض لنفس الألم. أنا وهو لا نريد أن نتعلم، لن يستطيع أن يجبرنا؟ لن أقرأ أية رسالة، حتى لو تعلمت لن أقرأ رسالة لأحد. والكتب.. هذه الحجارة الصفراء الثقيلة سوف أغرقها في النهر ذات يوم. نعم سأظل أحقد عليها، وإذا وقعت في يدي سأحرقها، سأغرقها،

لا أريد أن ألمسها، أن أنظر إليها ما دامت تكلف كل هذا العذاب والألم.

كان الولد يقف في مواجهة الجدار. وبين دقيقة وأخرى تهوي رجله، فيرفعها بسرعة، وكأن ألماً حاداً أصابها. كان يرفعها خوف أن يراه الشيخ أو أحد العرفاء. كان جسده يتمايل، يميل مرة نحو اليمين، ومرة نحو اليسار، والرجل تأخذ ميلاً معاكساً لتعيد إلى الجسد توازنه. وفكرت أن أستأذن الشيخ لأن أقف مكان هذا الولد. لقد تعب الآن، لا يستطيع أن يحتمل أكثر من ذلك. ماذا لو وقفت مكانه. لو أستطيع أن أتقيأ. أن أصرخ. أن أفعل شيئاً!

وتابع الأولاد القراءة. قرأوا أشياء كثيرة. وفجأة توقف الشيخ. نتر عصاه في الهواء ونظر إلى الأولاد. وقال:

- الباقون يسمّعون غداً.. أنا لم أنس أحداً، على الجميع أن يكونوا حاضرين.

وهز العصا مرة أخرى، ثم وقف، وأشار إلى أولاد الصف المتقدم وقال لهم:

- سمّعوا للصغار.

وبعداوة نظر إلينا وقام!

* * *

5

قبل أن يخرج من الغرفة نظر إلينا بقسوة، ثم هز عصاه وهوى بها، فسُمِع لصوتها أزيز حادّ في الصمت القاسي الذي كان يخيم على كل شيء. بعد أن اطمأن لأثر هذه الحركة قال:

- الدرة لم تشبع، ويا ويله من يقع بين يدي. وبعد لحظات، وهو يجيل نظراته في جميع الأنحاء أكمل: من يقع بين يدي سأحط فيه حمل حمار!

وبحركة مألوفة أشار إلى بضعة أولاد أن يتبعوه. فخرج أربعة. وبنقرات خفيفة من عصاه على الأكتاف طلب إلى اثنين أن يذهبا لمساعدة الشيخ صالح، وقال للآخرين: اتبعاني.

لم تمض لحظات بعد ذلك حتى انقلب كل شيء.

الولد الذي كان يقف إلى الجدار أنزل ساقه وضرب الأرض بعصبية، ثم بصق. عريف الصف الثالث وقف وقال بلهجة الشيخ: استراحة، في الوقت الذي كانت الاستراحة قد بدأت بالفعل. ورأيت أخي ماجد يترك مكانه ويغادر الغرفة

للحظة، ولما دخل ثانية كان يمد بطنه أمامه ويرفع يده في الهواء، ثم ينزلها وكأنه يتوكأ عليها. . وقف عند الباب، ولما رأى الأولاد على حالهم، لم يتحركوا أخذ يصرخ:

- داهية تسمّك أنت وهوّ. اخرس يا خنزير. تعال، تعال يا أعمص، وأنت يا أبا الطبيخ، كلكم حيوانات دواب. هذه العصا ستأكل من جلودكم. . انصراف.

وعمّت موجة من الضحك المتواصل. حتى أن عريف الصف الثالث طلب من أخي أن يعيد تمثيل المشهد، ولكن الاضطراب دفع عدداً من الأولاد لأن يقوموا في وقت واحد، ويبدأوا بتمثيل الدور، كل على طريقته. كانوا بذهابهم وعودتهم في الغرفة، على طريقة الشيخ، يصطدمون ببعضهم، ويتعمدون أن يكون الاصطدام في البطون. ثم قفز طفل صغير إلى الدكة، وبالطريقة نفسها التي تعوّدها الشيخ جلس وخلع طربوشه، ثم هز العصا في الهواء وأخرج علبة السعوط وبدأ يتنشق ويحرك شفتيه مثل أرنب ويقول:

- أسود. . يا أسود؛ وأنت يا ابن الداية، آه منك يا خنزير؛ أين هو ابن الآغا؟ أنتم خنازير، كلكم خنازير، الواحد لا يساوي بارة. حرام فيكم الخبز الذي تأكلونه، وهذه العصا. . لن تشبع. . وعطس وعطس مرة أخرى، ثم التفت وهو يهز رأسه بأسى وقال: أتعبتم الشيخ زكي. . تفو عليكم ياخيول مكدشة!

كان هذا المشهد قمة الفرح واللذة للأولاد. وبعد ذلك

بدأت الأصوات تفتر وتتداخل. وتكونت جماعات انتشرت في أنحاء الغرفة دون نظام!

هل يمكن أن يكون الأولاد الذين أراهم الآن هم أنفسهم الذين كانوا قبل ساعة؟ لماذا لم يتحركوا عندما ضرب الولد الصغير؟ كان يمكن أن يضربوا الشيخ. أن يضربوه حتى تدمى يداه ووجهه، ويوقفوه مثل كلب رافعاً رجله في الزاوية. لو ضربه كل واحد منا ضربة لتمزّق.

لم أستطع أن أفرح إلى الدرجة التي تذوب معها مخاوفي. كنت أضحك وأنا أرى ماجد بصوته الحاد يردد:

- اخرس.. اخرس.. حيوانات خنازير.

وضحكت عندما رأيت الصغير يمثل دور الشيخ، ويدفع يده اليمنى قبله لكي تستقبله أثناء الهبوط. ضحكت ولكن ظلت الأشياء في رأسي متداخلة مضطربة، وتأكدت أن هناك خطأ ما وإلا لسارت الأمور بشكل آخر!

ظلت معدتي تؤلمني. وعندما ناداني ماجد لكي نأكل لم أجد في نفسي أية رغبة. وضعت حبة زيتون في فمي. وظللت ألوكها كأنها قطعة من المطاط.

كان إخوتي في شغل عني. كانت أيديهم تمتد إلى الزيتون والبيض، وكانت عيونهم تتواثب في كل الأنحاء. وعندما تراجعت خطوة إلى الخلف، سألني ماجد:

- ألا تأكل بيضاً؟

- لقد شبعت!

كانت الشمس قد انحدرت على الجدار. انحدرت مقدار ذراع، وهذا معناه أن وقتاً طويلاً قد فات، لأن ساعة الجدار كانت للأولاد أهم الساعات وأدقّها، حتى أن الشيخ يستعين بهذه الساعة الأزلية، ويرتب كثيراً من الأمور على أساسها!

في الصباح عندما ندخل الكتّاب تكون الشمس قد دخلت. وبعد أن ينتهي درس الكبار تكون أشعتها قد لوّحت ووصلت إلى القسم الأعلى من الجدار. أما الاستراحة فتكون عندما تتوسط الجدار تماماً. وبعد ذلك تبدأ تنزلق حتى تصل إلى كل شيء! والمرات التي تغيب فيها الشمس، أو تقف ساعة الشيخ (وكثيراً ما كانت تقف) كنا نعتمد على الأذان في تحديد الساعة الثانية عشرة، وقت الانصراف!

فكرت في أشياء كثيرة، لكن صورة الشيخ وهو يضرب الولد الصغير لم تغب، كان الصغير يستعطفه، يقول له سأحفظ دروسي يا سيدي الشيخ. أبوس يدك يا سيدي الشيخ، سامحني بس هذه المرة، والشيخ لا يسمع، لا يفهم. كان يضرب ويضرب دون أن يتعب. شعرت بالحزن. كدت أبكي.

في هذه اللحظة نظر إليّ سامي. كان يبتسم وهو يقول لي:

- اضحك، اصرخ، بعد لحظة سيأتي الغول.

- وأين ذهب؟ لماذا أخذ معه الأولاد؟

نظر إليّ سامي كأنه يستغرب السؤال، ودون اهتمام سمعته يقول:

- ذهبوا لحمل الأغراض ومساعدة الشيخ صالح!

كلمات سامي وهو يقول لي: ذهبوا لمساعدة الشيخ صالح، قد خضّت دمي، جعلتني أشعر بالرجفة تمر فوق جسدي كله.

حاولت أن أفسّر مساعدة الشيخ صالح، لكن لم أجد أي تفسير. مساعدة الشيخ صالح؟ ماذا يمكن أن تكون؟

كنت أتصور أن لا أحد يستطيع الاقتراب من الشيخ صالح. إن لهذا الشيخ عالمه ومهماته، ولا يجرؤ أحد على أن يفكر فيها!

قبل ذلك بشهر مات رجل في الحي. ومنذ الساعة التي سمعنا فيها بموته، وحتى تم دفنه والكلمات التي تتردد لها علاقة بالشيخ صالح:

«الشيخ صالح بعث الطاولة».

«الشيخ صالح يطلب تسخين الماء وتحضير القماش والقطن».

«بعد قليل سيأتي الشيخ صالح».

«الشيخ صالح يقول الدفن بعد الظهر».

«لا حاجة للنعش الآن. سيأتي النعش فيما بعد. هكذا قال الشيخ صالح».

تصورت الموت رحلة ما. عملاً ما. ولكن عندما رأيت طاولته رطبة لزجة تقزّزت نفسي. إنها طاولة من نوع خاص،

ألواحها الخشبية مشربة بالماء والصابون. منظرها قبيح. وقد سألت نفسي كثيراً: ما علاقة الميت بالطاولة..؟ ولم أجد جواباً!

ظلت عيوننا تتابع المشهد بدقة: البيوت صامته، ولكن هذا النوع من الصمت الخطر. الطاولة تدخل. رجال يدخلون ويخرجون. يأتي رجل يحمل قماشاً أبيض. يتوقف العابرون ويتساءلون: نسمع همسات غامضة. يخرج اثنان وهما يمسكان برجل من تحت إبطيه، يبدو الرجل متعباً متهالكاً، عيونه حمراء وشفاهه يابسة. تقبل بعض النسوة وينفجر صوت البكاء حاداً متواصلاً. يتوقف العابرون. الرجال ينهرون النساء ويطلبون إليهن السكوت. يتحول البكاء إلى نشيج حزين مؤلم.

ويظل اسم الشيخ صالح يتردد بلا انقطاع.

«الشيخ صالح يسأل: هل سخن الماء؟»

«الشيخ صالح يكفّن الميت الآن!»

ما هو الموت؟ لماذا اضطربت حركة الناس واختلفت تصرفاتهم؟ ما علاقة الشيخ بكل ما يجري؟ هل الشيخ صالح طبيب يمكن أن يساعد الميت؟

لا نجرؤ على السؤال. الأسئلة تتوالد في رؤوسنا كل لحظة، ولكننا نخاف من طرحها في هذا الجو العصبي الغامض.

إن الشيخ صالح إنسان غير عادي. سيفعل شيئاً خارقاً. لماذا تأخر؟ والطاولة. هل ستبقى الطاولة عند الميت؟

ويأتي.. ليس طويلاً وليس قصيراً. حركاته نشيطة سريعة. ورجلاه لا ترتاحان على الأرض، وكأنه يمشي على رؤوس أصابعه، أو كأنه يدوس على حجر. إنه يقفز، يتطلع حواليه. وجهه أسمر سمرة قاسية. لحيته مستديرة، قصيرة. يرى بعين واحدة، أما الثانية فتبدو بيضاء يتخللها لون رمادي. يضع على رأسه لفة بيضاء صغيرة. وهذه اللفة تظهر سمرته بوضوح!

عندما وصل تحرك كل شيء. تراجع الأطفال وابتعدوا إلى الخلف كثيراً، وكأن خوفاً أصابهم، تقدم منه بعض الرجال وسلموا عليه باحترام لا مودة فيه. اقترب منه واحد وسأله. وبهمس أجاب..

وأخيراً سمعت صوته:

- هل كل شيء جاهز. الماء الساخن والقماش؟

ولم نسمع شيئاً بعد ذلك. لا أحد يدري ما يجري في الداخل. إن شيئاً مهماً يجري هناك. الطاولة الرطبة في مكان ما. إنها من أدوات الشيخ. ولماذا الماء الساخن؟ والقماش؟ ولا نخرج من هذه الدوامة إلا على أصوات بكاء حاد. إنه شيء يولد الخوف، ويحيل الإنسان عصبياً مستنفراً!

ويصل النعش. إن مرحلة جديدة تبدأ الآن. يخرج رجل ويجلس القرفصاء عند الباب، ويضع راحتيه على وجهه ويبكي. إنه يبكي بطريقة تثير السخرية: صوته أقرب إلى الضحك. ولكنه ضحك مقطوع النهاية ويتكرر برتابة. تعقبه فترات صمت. نتطلع إلى الرجل، إلى الباب. إلى النعش المركون على جانبه، يبدو

مثل صندوق طويل تتخلله شقوق متوازية تقطع أرضه من بدايته حتى نهايته، وأربع أذرع تمتد من ناحيتين. والشيخ ما زال في الداخل. وأخيراً يدخل النعش.. وأسمع الأولاد يقولون: التابوت هو النعش!

الدقائق تمر ثقيلة، يخرج بعدها الشيخ صالح، تخرج الطاولة. الطاولة مبلولة تقطر ماءً قذراً. يبدو الماء لزجاً، قطراته تسقط بانتظام وتنحدر على أرض الشارع، نخاف، نبتعد، لكي لا تلوثنا هذه المياه القذرة. يخرج رجل ويخاطب الرجال الواقفين عند الباب وعلى الرصيف المقابل «توكلوا على الله» يدخل الرجال بصمت. يدخلون دون أن ينظروا إلى بعضهم، دون أن يتحدثوا. صمت له رائحة خاصة يخيم على الجو. تنفجر مجموعة من الأصوات النسائية الباكية. أصوات لا تشبه الأصوات. لا تشبه شيئاً. ليست بكاء، وليست نحيباً. ولكنها تشبه الاثنين معاً ولا تشبههما. ونسمع أبواب تضرب، نوافذ تفتح. نرى أشباح بشر وراء الشبابيك. وأخيراً أصوات الرجال غاضبة تهدر.

ويخرج النعش مجللاً بقماش أخضر فيه عروق صفر ملتوية متشابكة، وكأنها كتابة، وعلى مقدم النعش طربوش حائل اللون بادي القدم!

ما يكاد النعش يصل منتصف الشارع حتى تهجم من الباب المفتوح على مصراعيه مجموعة نساء، نساء بأعمار متفاوتة. يضعن أغطية سوداء، وأغطية بيضاء، وبعضهن دون أغطية.

وتتوالى الأصوات حادة كأنها نهاية كل شيء. وأخيراً يبدأ الموكب ينتظم.

يتدافع الرجال ليحملوا التابوت. وعلى الجانبين، قريباً من التابوت تسير جموع الرجال، وإلى جانبهم، على الأطراف، الأطفال. والأسئلة في رؤوسنا تتوالد دون توقف.. ونسمع الهمسات:

- الدفن بعد العصر.

- إكرام الميت بدفنه.

- يجب أن يعلم الجميع.. الحرارة الآن قاسية!

- يا أخي إكرام الميت بدفنه. يجب أن يدفن الآن.

- اسألوا أخاه أبا عمر.

- بعد العصر أفضل!

- نقرأ الآن القرآن الكريم على روحه. وبعد العصر يكون الجميع قد عرفوا، وندفنه بمأتم يليق به، الله يرحمه.

- في أي مقبرة سيدفن المرحوم؟

- كم كان عمر المرحوم؟

- بعد العصر.

- طويلة إلى ما بعد العصر!

وتتوالى الأسئلة. أسئلة من نفس النوع. والتابوت يسير ثقيلاً حزيناً. الرجال المسنون في المقدمة وراء النعش، على بعد خطوات، الرجل الذي كان يبكي توقف عن البكاء، لكن

عينيه ما تزالان حمراوين. ورجلان يمسكان به، الأخ الكبير للمرحوم يمشي صلباً قاسي الوجه. وقد رفض، منذ البداية، أن يمسك بيد أحد!

ويسير النعش ونسمع صوتاً غريباً يرتفع فوق الحركة الرتيبة. حركة الأرجل والأكتاف التي انتظمت.

- الفاتحة لروح المرحوم الحاج صادق

- . . .

- الله يرحمه ويحسن إليه. .

ونصل جامع المنارة. الرجال يدخلون التابوت. الأطفال يتسلقون السور ويمسكون بالقضبان، ويخيم صمت لا يسمع خلاله سوى حركة الأجسام وهي تتقدم، وهي تنحني لتخلع الأحذية. وأخيراً يوضع النعش إلى جانب المحراب. الرجال يصلّون صلوات متفرقة. الأيدي ترتفع ثم تمر على الوجوه. ونسمع أصوات الرجال من جديد:

- بعد العصر تماماً.

- نعم، بعد العصر.

- الله يرحمه ويحسن إليه. كلنا على هذا الطريق.

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

وإلى جانب التابوت يبقى بعض الرجال ويذهب الآخرون.

ويمر الظهر ثقيلاً، حاراً، له رائحة خاصة. الأسئلة التي تراكمت طوال ساعات تبحث عن إجابات.

- مات الحاج صادق!

- صحيح؟ متى؟

- فجر هذا اليوم. ويستعمل الصغار نفس الكلمات التي سمعوها!

- الدفن بعد العصر.

ما معنى أن يموت الإنسان؟

ويتوقف الذهن عن السير، يتيه. لقد رأى أكثر من مرة خرافاً تذبح، ولكنه لم ير إنساناً ميتاً. رأى قططاً ميتة، ولكن القطط تموت أغلب الأحيان نتيجة سبب ما. أما الإنسان فكيف يموت؟ لماذا؟ ألا يتحرك الآن أبداً؟ هل يفتح عينيه وفمه؟

إن شيئاً غامضاً ومخيفاً يخيم على كل شيء. ما علاقة الشيخ صالح بهذا كله؟ ألم يستطع أن يفعل شيئاً ليوقف الموت؟ ربما كان هو السبب. إن هذا الشيخ يثير الرعب. يجب على الأطفال ألا يقتربوا منه، إنه شرير يفعل كل شيء. هل الله عاقبه على أفعاله بأن عور عينه؟ وهذه الأدوات التي تثير الاشمئزاز وتسبقه أينما ذهب! الطاولة، النعش، الماء الساخن، القماش! لماذا يقوم الشيخ صالح بهذه الأفعال الشريرة ولا يعترض أحد؟

فهمت من الأطفال أن الطاولة التي يستعملها الشيخ صالح لكي يغسل عليها الموتى، يضعهم فوقها ويصب الماء والصابون، ويدلك الصدور والرؤوس. ولكن لماذا يغسل الموتى؟ وهل يغسلهم وهم عراة؟ ألا يخاف؟ ألا يخجل؟ إن شيئاً غامضاً لا يعرفه أحد هو الذي يفسر الموت.

- ويتطلع إلى الوجوه التي حوله ويسأل:

- لماذا يوضع الميت تحت التراب؟

- أين يجب أن يوضع؟

- يبقى في بيته!

- ولكن رائحة الموتى قوية، وفي بطونهم دود.

وأمد أنفي من بين القضبان. لم أشم رائحة مميزة أو خاصة. إن رائحة عطرية من ذلك النوع الذي يستعمله الشيوخ تملأ أنفي. ومن أين يأتي الدود؟ يمكن أن يوجد الدود إلى جانب النهر، في الأرض الرملية الرخوة.. أتذكر عندما ذهبت مع إخوتي لصيد السمك، لقد جمعنا ديداناً صغيرة بيضاء وأخرى ظهرها أحمر؛ أما داخل الإنسان فلا يوجد دود. وحتى لو وجد ما شأنه بالموتى؟

- هل الحفرة التي يوضع فيها الميت عميقة؟

- عميقة جداً.. مثل بئر!

- ويضعون فوقه الحجارة والتراب؟

- نعم

- وكيف يحتمل الحجارة فوق صدره؟

- لأنه ميت.

إن كل ما يقوله الأطفال خطأ. إن الموتى مثل الأطفال يعاملون بقسوة. الحجارة والتراب يضعونها فوقهم.. لماذا؟ هل يهربون؟ وماذا لو هربوا؟

- تتصور الحاج يذهب إلى الجنة أو إلى النار؟

وأحسُّ أن القضيب يكوي جبهتي. لقد أسأتُ للحاج صادق إساءة كبيرة عندما تصورت أنه قد يذهب إلى الجنة أو إلى النار.

- لكن مَا هي الجنة؟

- قبل الجنة والنار يجري الحساب. وأمي تقول ناكر ونكير يضربون الموتى بعصي في رؤوسها مسامير.

- ولماذا يضربون الموتى؟

- حتى يقولوا كل شيء.

- عن أي شيء يسألونهم؟

- عن الخير والشر!

إن أموراً كثيرة وخطيرة تأتي دفعة واحدة. وإن فهمها يتطلب وقتاً طويلاً، ويجب أن أسأل أمي وخالي وإخوتي!

الحساب. ناكر ونكير. عصا غليظة. الخير والشر. الجنة والنار.

هل النار مثل الفرن؟ ولم يستطع أن..

* * *

إن للشيخ صالح علاقة بهذه الأمور كلها، ولولاه لما أخذت هذا الشكل. يجب ألا تقترب من هذا الأعور. ماذا يفعل لو أن الشيخ طلب منه أن يموت؟ هل أستطيع أن أدافع عن نفسي؟

وعاد من جديد يتساءل: ماذا يفعل الصغار عند الشيخ صالح؟ لماذا أرسلهم إليه الشيخ زكي؟

وتنفس براحة لأنه لم يذهب، ولكن القلق لم يزايله. إن أموراً خطيرة تجري في هذا المكان. هل تعرف أمه هذا الذي يجري هنا؟ لماذا لم يقل لها إخوته؟ وفكر.. لو عرفت أمي أن إخوتي سيكونون في مثل هذا الوضع لبكت. إنها تبكي لأمور بسيطة. أما إذا عرفت أن الشيخ زكي يضرب الأولاد الصغار، فإنها ستصرخ في وجهه. ستقول له إن الله سيحرقه في نار جهنم، وستأخذ أولادها وتخرج. إن نملة صغيرة تثير غضب أمي. فعندما تراني ألاحق النمل وأحرقه تصرخ في وجهي: «هذه روح. إن الله خلقها، ألا تخاف أن يحرقك الله في نار جهنم؟» وبعصبية ظاهرة تأخذ مني الكبريت، وبعض الأحيان تضربني.

ماذا لو رأت أمي الشيخ زكي يضرب الأولاد بهذه القسوة؟ والشيخ صالح؟ إن أمي لن توافق على اقتراب هذا الشرير منا. لم يسمعها تشتمه، ولكنه يتذكر أن اسمه يثير في نفسها الكراهية والخوف!

عندما يعود إلى البيت سيقول لأمه كل شيء. إن أمه لم تكن صادقة. الشيخ زكي خنزير، يضرب الأولاد، نعم يضربهم دون رحمة. لقد رآه بعينه يضرب الصغير. وتذكر كلمة أمّه. «لم يحفظ دروسه» ولكن هذا الصغير قال له إنه سيحفظ الدروس غداً. وماذا إذا لم يحفظها؟ إن هذا الولد مثله لا يريد أن يتعلم.

وتساءل هل يكون أبوه قد أوصى الشيخ بأن يضربه؟ ولكن لماذا يكون الآباء هكذا؟ ليأت هذا الأب ويتعلم. ليتلق ضربات الشيخ. والموت؟ هل يترك الصغار عند الشيخ صالح ليضعهم مع الموتى؟ لو اقترب منه هذا الأعور، لو اقترب منه لضربه. لن يدعه يميته، أو ليضعه مع الموتى. ليس الموت أمراً سهلاً: الطاولة القذرة. الحفرة العميقة. ثم الحجارة. نعم الحجارة الكبيرة فوق صدره. وامتدت يده إلى صدره، وضغط. هل يحتمل الحجارة الثقيلة والتراب فوقه؟ ولكن لماذا؟

كانت الشمس قد تجاوزت الجدار، وبدأت تنصبّ عمودية على الأرض الإسمنتية أمام الغرفة الكبيرة. وأخذت جلبة الأولاد تهدأ تدريجياً. العرفاء انفصلوا عن الأولاد وبدأوا يمارسون وجودهم المستقل. لقد أصبح موعد الشيخ قريباً. الأصوات تتصاعد، أصوات الكبار وهم يعلّمون الصغار:

- الألف لا شيء عليها

- الباء نقطة تحتيها

- الألف لا شيء عليها

- الباء. .

- الألف لا شيء عليها

- الباء نقطة تحتيها

وبعد فترة يدخل الشيخ. كان وجهه يتصبب عرقاً، وأنفاسه سريعة متلاحقة. المنديل بيده وقد ابتل تماماً. ينظر إلى الصغار

نظرة قاسية. كان بوده في تلك اللحظة لو يضرب أي إنسان، أن يزعق في الوجوه.

بعد أن تأمل الوجوه بعيون زائغة متعبة، سأل عريف الصف المتقدم:

- هل كل شيء كما أوصيت؟

وبلهجة قاطعة لا يتخللها خوف أو شكوك قال العريف:

- تماماً. شيخنا. كل شيء تمام!

ولم يرتح الشيخ للجواب. لقد سمعه مئات المرات، ومع ذلك فهو متأكد أن لا شيء كما أوصى. وسأل بقسوة:

- وهل أحضر الأولاد الماء؟

- لم تقل لنا، يا شيخنا!

ونظر إلى العريف. كان بودّه أن يضربه، أن يبصق في وجهه، ولكنه لم يجد القدرة في نفسه. قال بقسوة ساخرة:

- داهية تسمّك. ولك حلّك تتعلم.. ياحمار.

وضحك الأولاد وهم يرون العريف يتعرض للإهانة، ولولا نظرات الشيخ لأصبح الضحك قهقهة. ولم يكد الشيخ يحس أن الأمور قد تأخذ هذا الشكل وتتعرض للخطر حتى صرخ:

- اخرس.. اخرس أنت وهو. حيوانات، أحسن ما فيكم دابة. حرام فيكم الخبز الذي تأكلونه!

بعد فترة صمت قصيرة أشار الشيخ بعصاه إلى ثلاثة أولاد أن ينهضوا. إنهم يعرفون واجبهم، ولكنهم ظلوا واقفين ينتظرون

أن يقول لهم شيئاً. . قال بتعب ظاهر:

- اثنان لجلب الماء من الجامع. وأشار بعصاه إليهما. وأنت، وصمت قليلاً، كأس ماء وأشار إلى الثالث.

كان الشيخ متعباً لدرجة أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً. وبدا أنه لا يرغب في شيء. كانت فكرة أن يسمع الدروس، أو أن يعطي دروساً ترعبه!

الساعة لم تبلغ بعد الثانية عشرة. الشيخ سئم وقد بدا ذلك واضحاً من النظرات الرخوة، وفي عصبية وهو يلاحق ذبابة بعصاه يريد أن يقتلها! في النهاية، نظر إلينا نظرة ضيق، وكان الصمت ثقيلاً يخيم على كل شيء، حتى أن أنفاس الشيخ كانت تُسمع بوضوح. . وتحرك، ثم قال:

- الصف المتقدم يسمّع للصف الأول. الصف الثاني وظيفة.

وقبل أن يغادر الغرفة، وقف في الباب وهز رأسه، ثم رمى العصا في الهواء والتقطها، ولما اطمأن لأثر هذه الحركات، قال:

- الذي يريد أن يموت يجهز نفسه. إذا سمعت صوتاً الجميع فلقة!

وغادر. تجاوز الدالية وأحواض الزرع نحو البيت، وغاب.

أما الأولاد فقد بدأوا. كانوا مثل خلية النحل. أصوات ناعمة متداخلة. الصغار ينظرون بفرح إلى الكبار، وهم يقلدون

الشيخ، ولكن هذا التقليد الرصين الذي لا يشي بنفسه. وإن كان اكتشافه سهلاً!

حوالي الثانية عشرة عاد الأولاد، الذين ذهبوا لمساعدة الشيخ صالح، والذين جلبوا الماء. كان الذين جلبوا الماء يتضاحكون، وقد بدت ملابسهم مبللة ووجوههم مخططة، بعد أن لعبوا كثيراً بالماء. لقد مسحوا جزءاً من وجوههم، وتركوا الأجزاء الأخرى، فظهرت الخطوط واضحة!

* * *

لم أستطع خلال الغداء أن آكل شيئاً. تظاهرت بالشبع بعد أن أكلت لقمتين، وانشغلت أمي بزوار كانوا عندنا ذلك اليوم. وقبل أن أغادر البيت تناولت قطعاً من القماش، دسستها في جيبي دون أن يراني أحد، وخرجت إلى الشارع قبل إخوتي.

كانت فكرة واحدة تختمر في رأسي، وتشغلني عن كل شيء. أما الساعات التي قضيتها وأنا أرى أولاد الصف المتقدم يعلمون الصغار، فقد بدت ثقيلة مملة، ولا أعرف كيف انتهت.

بعد أذان العصر تماماً دخل الشيخ. كانت عيناه حمراوين من أثر النوم، والعرق ينحدر من رقبته على صدره المفتوح، وما كاد يجيل نظره فينا، حتى استقر على رأي سريع.

- صفان.. مثل الألف. الصف القبلي، والصف الشرقي، وبعد الجامع انصراف. وإذا خالف واحد لا يلوم إلا نفسه.

ما كدنا نتجاوز الجامع حتى أعطيت سامي (بيت الجزو) وقلت له إني ذاهب لبيت خالي.

كانت تسيطر عليّ فكرة واحدة: يجب أن ألقّن الشيخ زكي درساً لن ينساه في حياته.

سأذهب إلى شيخ الشيوخ وأقول له كل شيء.. وإذا عرف، سوف يفعل شيئاً، لن يترك الأمور هكذا. سأذهب إلى الشيخ مجيب، وأنقل له كل ما جرى، أنا لم أطلب منه شيئاً قبل الآن..

اليوم أريد كل شيء.. وإذا لم يستجب لي؟ إذا لم يستجب فسوف يكون مثلهم، ولكنه استجاب لجميع الناس، لماذا لا يستجيب لي؟ أنا لم أطلب منه شيئاً، ولن أطلب مرة أخرى، أريد أن أطلب هذه المرة. أريده أن يعلم الشيخ زكي، أن يقول له: قف أيها الشيخ الخنزير، إلى أين أنت ذاهب؟ إذا ضربت الصغار مرة أخرى فسوف أكسر يدك.. إن ضرب الصغار حرام.

تجولت في أماكن عديدة. مررت على بيت خالي، ولكن لم أستطع أن أبقى أكثر من دقائق. وعندما وصلت إلى التكية والطاحونة، وقفت هناك طويلاً. نظرت إلى النهر. كان وجه النهر مخضراً، كأنه يسبح تحت طبقة من الزيت. وفي ظلمة المساء رأيت العصافير والوجوه وكل شيء حزيناً. قفزتْ ضفدعة فخفت منها، قلت: هل تعيش الضفادع في بطون الموتى! هل الضفدعة دودة؟

كنت أتحسس الخرق في جيبي وقطعة النقود. قلت في نفسي: بعد غروب الشمس تماماً سوف أنتهي من هذه المهمة، بدا لي أن بعض الذين مروا نظروا إليّ. . لا أدري إن كانت نظراتهم ساخرة. ولكن سينتهي الأمر في دقيقة. بعد قليل ينتهي كل شيء! سأربط الخرق وأقفز مثل قط. وإذا قفزت ألا أسقط على رأسي وأموت؟ وإذا مت هل يأتي الشيخ صالح وطاولته؟ وأبعدت الفكرة. أبعدتها بسرعة. لا أريد أن أموت. تقدمت باتجاه أم النذور. سمعت صوت الحاج درويش. كان صوته رتيباً خشناً. قلت: لن أنتظر. خفت أن يراني أحد في تلك اللحظة. ولكن هذه الخرق التي يزيد عددها على مائة، من أين جاءت؟ ألم يعلقها الناس؟ من حقي إذن أن أعلّق واحدة. . لا. . أريد أن أعلّق اثنتين. .

لن أعلّق غير هاتين الخرقتين. أقول أمامك أيها الشيخ لن أعلّق في حياتي غير هاتين. . ولكن لماذا علق الناس كل هذه الخرق؟ هل ضربهم كلهم الشيخ زكي وأرادوا أن ينتقموا منه؟ والشيخ ما زال حياً وما يزال يضرب الأولاد كل يوم. . ماذا فعلت الخرق؟

وأتلمسُ الخرق، بدت لي الخرقة تلك اللحظة عديمة الجدوى. عصرتها بين أصابعي. أردت أن أمزقها، قلت لنفسي مرة أخرى: ما الفائدة؟ إن أم النذور من ساقها حتى أعلى غصن فيها تمتلىء بالخرق. خرق من كل الألوان، ورغم ذلك ما يزال الشيخ يضرب ويشتم. ولكن لربما يكون غير الشيخ زكي؟

بدأت أتذكّر الأمور التي تستوجب تعليق كل هذه الخرق.. أتذكر أن أمي علقت خرقة أثناء مرضي ولم أستطع أن أتذكر شيئاً آخر!

لا يمكن أن تكون هذه الخرق من أجل المرض. ليس في الحي هذا العدد الكبير من المرضى. إن الناس يسيرون في السوق الكبير وقريباً من الجامع. والأطفال يذهبون كل يوم إلى الكتّاب، وعند الغروب يلعبون في الحارة.. أما النساء، ففي البيوت يحضّرن الطعام ويأكلن البزر بعد العصر ولا يتوقفن عن الكلام.. أين هم المرضى؟

وقال في نفسه: لا يمكن أن تكون هذه الخرق من أجل المرض!

ومن جديد بدأت أتصور أسباباً أخرى. تذكرت كلام أمي وهي تقول: إن وراء كل خرقة هماً، هموم الناس كثيرة ولا تنتهي! لماذا تقول أمي هكذا؟

عدد الخرق على الشجرة لا يستطيع أن يعدها أحد؛ شعر أن حزناً يعصر قلبه، وشعر أن هذا الحزن يولّد في نفسه سؤالاً غامضاً: إن هموم الناس في حي الشيخ مجيب كثيرة.. ولكن لماذا وصلت إلى هذه الدرجة؟

ليس وحده إذن، أين هم الناس؟ إنه لا يرى أحداً، حتى الصغير الذي ضربه الشيخ هذا الصباح لم يره. هل يأتي؟ حاول أن يستعيد صورته من جديد، فلم يستطع، قال وقد أصبح

عصبياً: إذا لم يأت الآن فلن يأتي أبداً. وإذا لم يأت فإنه لا يستحق الشفقة!

وأسِفَ لأنه وحيد. بدأت تترآى له الظلمة تموج بالأشباح: مخلوقات كبيرة لها أنياب حادة، تنقض من السماء على البشر مثل الطيور الكبيرة. وهذه الطيور تأكل الناس، تمزقهم، تأكل قلوبهم وتترك الباقي.

تطلَّع حواليه في الغبش الشفاف الذي يحيط به. كانت ظلمة خفيفة ناعمة تتسرب بهدوء، يحسها الإنسان كأنها تسير، تزحف، حتى تشمل كل شيء، وعندها تتساوى ألوان الخرق، تصبح كلها رمادية أول الأمر، ثم سوداء لينة، ثم سوداء قاسية. تختلط الخرق بأوراق الشجر، تختلط الأغصان بحائط التكية، يختلط الحائط بالبيوت البعيدة، تصبح كلها مختلطة متداخلة، إنها شيء واحد!

وأحسّ أنه أصبح جزءاً من الشجر والخرق والتكية والبيوت البعيدة، وامتد فكره ليصل إلى أبيه وأمه وإخوته والأولاد الصغار. وعندما تراءت له صورة الشيخ زكي وصورة الشيخ صالح جفل. توقف. إنه لا يجد أية رابطة تربطه بهم. ومد يده في الهواء، كأنه يريد أن يقيم بينه وبينهم سوراً، حاجزاً، شيئاً يمنعهم من الاقتراب!

كانت الحركة حوله تذوب. لم يعد يرى أحداً، وحتى الناس الذين مروا لم يرهم. تحسس الخرق في جيبه وقطعة

النقود، قال في نفسه: سأربط خرقتين على أم النذور. . وسألقي قطعة النقود وأهرب!

وبدأ يتعذب من جديد. إن الشجرة تستجيب للمرض، فإذا طلب أن يموت الشيخان، أن يتمزقا، أن يتدفق الدم من كل موضع منهما، إذا طلب هذا هل تستجيب له أم النذور؟ هل يلبّيه الشيخ الكبير؟

وتذكَّر أمه. كانت تقول دائماً: الشيخ مجيب يفرج كل مهموم. فإذا أخلص الإنسان النية وكان طاهراً. . لا يخيب.

إن الهم الذي يحسه في قلبه بلغ درجة لم يعد يحتمله. فهو يحس بالتعب، وحتى بالمرض. وإلا لماذا أصبحت معدته في حلقه؟ لماذا شعر برجليه تخونانه هذا الصباح عندما وقف أمام الشيخ زكي؟ إن شيئاً فيه قد تغير، لايدري ما هو، لكنه يحسه!

وتسلق أم النذور مثل قط. تجاوز الساق وصعد. اتجه إلى الفرع الممتد نحو باب التكية: إن هذا الفرع أقرب إلى الشيخ مجيب. ليصعد أكثر، وصعد، ارتطم وجهه بالأغصان الصغيرة، بالخرق، سمع صوت جرس صغير، ابتسم وهو يقول في نفسه: لماذا يعلق الناس الأجراس؟ أحس بشيء ناعم يلتصق بوجهه، ارتجف أمسك بغصن قوي، ورفع يده الأخرى يريد أن يزيح هذا الشيء الناعم. ارتاح عندما عرف أنه شبكة عنكبوت! وبعصبية أزاحها وصعد. ولما تأكد أن المكان الذي وصل إليه مشرف وقريب من التكية، أخرج الخرق.

ربط الخرقة الأولى: هذه للشيخ زكي، ربط الخرقة الثانية

وبإصرار وبصوت عال قال: وهذه للشيخ صالح. تكوّر في مكانه بين الأغصان، وبعد أن اطمأنّ في جلسته قليلاً، بدأ يطلب:

يا شيخ مجيب. يا أب كل الشيوخ، أريد منك أن تكسر عصا الشيخ زكي. اكسرها لتصبح مائة شقفة. ويا ليته لا يجد عصا غيرها. ليُصَب إصبعه بالورم حتى يعجز عن الأكل. ليتورم كله. وتصور الشيخ زكي وقد أصبح أكثر سمنة، فضحك! ثم تابع: يا ليته يمرض. أراد أن يقول ليته يموت، لكنه خاف.

تراجع إلى الجهة التي وضع فيها خرقة الشيخ صالح: وأنت أيها الأعور لتنكسر طاولتك ونعشك، لِيُصِبْك الجرب. وليُصِبْك الرمد. وتذكر أن الشيخ بعين واحدة، توقف لحظة ثم أضاف: لِيُصِبْك الرمد في عينك الأخرى. ليت الله يسفّرك من هذا البلد، ليتك تموت.

قال الكلمات الأخيرة بسرعة وهو يستعد للقفز فلم تظهر واضحة. بدت متداخلة سريعة، وربما غير مفهومة، فندم. يريد أن يقولها بوضوح لكي تصل الشيخ مجيب. إن الموت هو الشيء الوحيد الذي يناسب الأعور..

وقفز. تطلع حوله، رأى على البعد أشباح رجال، ولكنه لم يهتم لذلك. ما زالت لديه مهمة ثانية: إلقاء النقود. قال لنفسه: إلقاء النقود سهل. سوف أرميها بسرعة وأهرب. لقد رأيت نساء كثيرات يفعلن ذلك دون خوف.

ولم يحرص على أن يرمي نقوده خفية.

كان صوت الحاج درويش يتخلله البكاء. كان يصله وقد طغت عليه هذه الرنة المتوجعة الكئيبة، فأصبح غامضاً رتيباً، ويشبه صوت ارتطام أوانٍ نحاسية، وبدا مزعجاً أكثر من أي صوت سمعه.

سأل نفسه: ما فائدة النقود التي يرميها الناس؟ إلى من تذهب؟

ترددت في رأسه كلمات أمه من جديد وهي تتحدث عن الشيخ مجيب: إن الخرق والنقود مثل الجسد والروح. لا تغني واحدة عن الأخرى. إربط وارمِ. اعقد وتمنى.

ولم يجد في نفسه حاجة لقطعة النقود التي كانت في جيبه. إنها صغيرة. ولكن ما فائدتها للشيخ مجيب؟ ليس الأمر مهماً. لتذهب والسلام.

أخرج قطعة النقود من جيبه، وضعها في قبضة يده. أغلق القبضة وقرّبها من فمه. نفخ فيها ثلاث مرات ثم قال:

استجب لدعوتي يا أبا الشيوخ، يا شيخ مجيب.

وقذفها. حاول أن يرسلها في مكان بعيد، على ظهر القبة، حتى لا يستطيع الشيخ درويش أن يصل إليها. وسار.

نسائم الغروب الخريفية تولد رعشة خفيفة. ليست رعشة برد. ليست رعشة خوف، إنه يحسها، ولم يهتم أن يجد لها اسماً.. وسار في اتجاه البيت!

* * *

6

كانت ظلمة المساء قد تسربت إلى كل شيء، فخلقت جواً من الحزن الشفيف يحسه كل مخلوق دون أن يدري له سبباً. فالأحاديث التي ابتدأت بعد العصر نشيطة حافلة، تراجعت في هذه الساعة لتصبح بطيئة متأملة. والرجال الذين تعبوا من حركة النهار، تهالكوا على المقاعد، وقد أصابهم الإعياء حتى أنهم لا يجدون في أجسادهم القوة لإغلاق محلاتهم. أما الأطفال فقد ملّوا اللعب وعادوا إلى بيوتهم ضجرين.

واستغرب وهو يسير نحو البيت، أن الكلاب كانت تتراكض وتعوي، وقد سارت قطعاناً، وهي تنتقل من مكان لآخر دون هدف، وكأنها لا تدري أمقبلة هي على الليل أو النهار!

اتخذ طريقه في هذه الظلمة المسائية إلى البيت. عيناه تنظران إلى الأشياء والأماكن نظرة متسائلة. وقبضة يده اليمنى مشدودة بقوة، يريد أن يضرب بها شيئاً، أن يتحدى أي شيء. كان يهزها في الهواء وهو يقول في نفسه: يجب ألا تبقى الأمور

كما هي الآن. ونظر إلى قبضته، فبدت له صغيرة ضامرة. وارتسمت على فمه ابتسامة حزينة عندما مرت في رأسه المكاسرة التي جرت بينه وبين سامي قبل أيام. لقد هزمه أخوه بسهولة، خلال دقيقة واحدة، وقد حاول معه مرة أخرى، ولكن لم تكن النتيجة أفضل. وتساءل: أما قبضة أبي؟ أما قبضة ماجد؟

توقف يريد أن يتذكر قبضة الشيخ زكي. تصورها كتلة ضخمة، إذا سقطت على شيء حطمته. إن هذه اليد كبيرة لدرجة لا يستطيع أن يقاومها. وسأل نفسه: وإذا تورمت؟ وأحس بفرح. في هذه الحالة يستطيع أن يضغط عليها بيده الصغيرة، ويرغم الشيخ على الصراخ، على السقوط! كان متأكداً من ذلك. إن في كل إنسان نقطة ضعف. وإلا كيف يفسر انهيار أبيه قبل أيام عندما حاولت أمه إخراج الصديد من إصبعه؟

كان إصبع أبيه قد تورم. أصبح لونه أحمر على سواد وصفرة. وأبوه يتجول في البيت عصبياً غاضباً، لا يستطيع أن يجلس. لا يستطيع أن يعمل، لا يستطيع أن ينام. حتى الأكل كان صعباً بالنسبة له. وعندما اقترحت عليه أمي أن تضع له عجيناً وزيتاً وتغلف الإصبع حتى اليوم التالي رفض. كان لا يحتمل أية كلمة. رفض أول الأمر بشدة. ثم بعد لحظة وافق، ثم رفض مرة أخرى، وهو في حركته يخلق جواً من التوتر والعصبية. وأخيراً اقترحت عليه أمي أن تفتح له الإصبع. حضّر لذلك كل شيء بعناية، ثم طلب إلى الجميع أن يغادروا الغرفة

وأغلق الباب. . وبعد قليل سمعنا صوته وهو يصرخ ويشتم!

قال في نفسه: إذا تورمت يد الشيخ زكي وامتلأت بالقيح، فسوف أرغمه على الصراخ، على الركوع. سوف أدوس على إصبعه بقوة. حتى برجلي سأدوس، لكن متى يكون ذلك؟

اجتاز عدة أزقة في طريقه إلى البيت. رأى في الطريق معاوية فابتسم له. لقد رآه قبل الآن مرات كثيرة. وتحدث معه بالإشارات، لكنه لم يخطر بباله أن يسأل لم خلق معاوية أخرس؟ لقد رآه هكذا فاعتبر الأمر طبيعياً، مثلما يرى قطاً أسود، أو شجرة تحمل ثمراً. . أما الآن فقد خطر له أن يسأل نفسه، أن يسأل أمه. ولكن معاوية كان قد غاب. وتذكر أحمد الذي يذرع أزقة الحي والشارع الرئيسي على يديه. كان أحمد يقف عند أبواب البيوت، عند أبواب الدكاكين، ومقابل أي خبر أو نكتة يأخذ قطعة من النقود. إنه لا يتعامل مع الناس إلا بالنقود. فإذا أعطاه أحد خبزاً فإنه يرفض بشدة، ما عدا الحالات التي يكون فيها جائعاً؛ ولا أحد يعرف أين تذهب النقود. لكن خاله قال مرة «هذا العطيلة يطعم عشرات الأفواه».

لقد صنع أحمد لنفسه مسكات خشبية، لها بطانة من الجلد. أما أرضيتها فمن الخرق والكاوتشوك. وكان عندما يدخلها بيديه، تتحول إلى قوة وحركة تشبه العجلات. كان يحرك بقايا الجذع ويدفع يديه، مرة اليسرى ومرة اليمنى، ويمشي. لقد جرب مرة أن يقلده، حاول أن يسير مثله، ولكنه لم يستطع أن يقطع أكثر من متر أو مترين. شعر بعدها بالألم

والعجز. وتساءل: كيف يستطيع أحمد أن ينتقل من مكان لآخر طوال النهار؟

وتساءل أكثر: لماذا أصبح هكذا؟

الأولاد يقولون عندما يجري الحديث، إن الله خلقه هكذا. أما أمه فتقول: إن الله جازاه على أفعاله الشريرة. كان يمسك القطط من ذيولها ويلوّحها مرات عديدة في الهواء، ثم يضربها بالجدار. كانت القطط بعد أن تصطدم بالجدار تسقط وعيونها مفتوحة. كانت تنظر إليه وتموء، وتتحرك حركة مجنونة عمياء، ثم تموت. وتضيف أمه بلهجة غامضة مهددة: لقد عاقبه الله. إن الله لا يغفل عن شيء... حتى القطط والنمل!

أما كيف تنتهي قصة أمه، وهي تختلف كثيراً عن قصة أولاد الحارة. فذات يوم قتل أحمد قطة سوداء قتلها بنفس الطريقة، لكن لم تمت فوراً، إذ ما كادت تصطدم بالجدار حتى ارتدت وقفزت إلى وجهه، وفي صباح اليوم التالي أفاق، ولم يستطع المشي. وبعد أيام كان بدون أرجل.

ولم يعرف هل يصدق أمه أم يصدق الأولاد. قال في نفسه: إذا كانت القطط الصغيرة قادرة على أن تنتقم، فلماذا لا أستطيع؟ أنا أقوى منها، أقوى مائة مرة. ونظر إلى قبضته وهزها في الهواء، وتاه في أفكار أخرى!

عندما كان يدخل إلى البيت، كانت أمه تجلس في عتمة الحديقة مع عمته وامرأة أخرى. كن يجلسن في الباحة الداخلية، تحت شجرة الليمون. وما كادت تراه حتى هرعت

تستقبله وقد غلبها الانفعال. قبلته بحرارة، احتضنته، كأنها لم تره منذ وقت طويل، لكنه لم يشعر أنه يحبها، ابتعد، ثم سمع صوتها يقول له:

- لقد أصبحت رجلاً.. هل أعجبك الكتّاب؟

وبعصبية رد وكأنه يتحداها:

- وتقولين إن الشيخ لا يضرب الأولاد الصغار؟!

- وهل ضربك؟

- لم يضربني، لكنه ضرب ولداً صغيراً، ضربه على يديه، على رجليه، على ظهره، لقد كسّره!

- لقد ارتكب هذا الولد خطأ، أليس كذلك؟

- قال للشيخ إنه سيحفظ دروسه غداً، لكن الشيخ ضربه، كلب.

- عيب تقول كلب، إن هذا الولد كسلان!

- لقد ضربه مائة عصا، وفكر في الشيخ، أراد أن يجد تعبيراً مناسباً لوضعه، فلم يجد سوى كلمة برميل. قال: يمشي مثل البرميل. وقام يريد أن يقلده. كان غاضباً ولكن فكرة تقليد الشيخ طغت عليه، وبعد أن حاول وجد أن الفكرة تافهة فتركها.. وعاد يقول: مثل برميل الزفت أكثر من البرميل. يضرب ويضرب. كاد الولد أن يموت. وتراكمت الصور في رأسه، منذ مطلع النهار حتى تلك الدقيقة. تراءت له صور الشيخ صالح، الشيخ زكي، الموت، العصا، وشعر أنه يكره كل شيء.

وأخرجته أمه من أفكاره ومشاعره، وهي تسأله:

- لم تقل لي ماذا علمك الشيخ؟

- إنه لا يعرف شيئاً، لا يعلم شيئاً. كلب. وبعد لحظة أضاف: يعرف كيف يضرب الأولاد... كلب كلب.

كانت المناقشة تدور بينه وبين أمه في جو من العصبية. فقد لاحظت أمه ذلك، وأحست أن شيئاً يعذبه، فلم تحتجّ على كلماته، على الصفات التي أطلقها على الشيخ. وبعد لحظات ترك الباحة الداخلية بنزق.. ودخل.

سمع وراءه صوت أمه:

- وجدان ساعدي أخاك في تغيير ملابسه، ولكن قبل ذلك ليغسل يديه ورجليه!

إن علاقته بوجدان حميمية، رغم الفرق في العمر. كان يبوح لها بكل شيء. يقول لها ما يحصل معه قبل أن يقوله لأمه. بل يحدثها عن أشياء لا يقولها لأمه. وما كادت أخته تراه، حتى سألته:

- كيف كان الكتّاب، يا سامح؟

رد عليها بلهجة متداخلة، فيها التحدي والتقليد:

- الشيخ زكي كلب، كلب، كلب. لقد ضرب ولداً صغيراً دون سبب، وأبي يقول اضرب، وأمي تقول لا يضرب الصغار!

قال الكلمات الأخيرة وهو يحاول أن يقلد أمه. أضاف مغيّراً لهجته: لو ضربني لضربت أباه!

- لو مال عليك لفصصك! قالت ذلك بلهجة تحريض وكأنها تدفعه لأن يشتم أكثر.

- ولكن. . . لو تجمّع عليه الأولاد، ألا يقدرون عليه؟

- وعصاه؟

وفكر: لو أن الشيخ دون عصا لفقد نصف قوته، أما هذه العصا اللعينة! وسمع ما يشبه الأزيز في الجو. إن صوتها وهي تتحرك في الهواء يرعب. أما إذا بدأ الشيخ يضرب فلا أحد يستطيع أن يقف في وجهه. قال في نفسه: إن العصا هي العدو الأول. إنها أكثر قسوة من الشيخ. الشيخ بدون عصا. . . بف، إنه لا شيء!

وعاد وتراجع. تصور الشيخ بقامته الممتلئة التي تزن جميع الأولاد. إنه ما يزال أمام سؤال أخته: والعصا! ماذا يمكن أن يفعل بها، لم يقل لها إن عصا الشيخ ستتحطم، ستصبح مائة شقفة قبل أن يحل اليوم التالي. أحس بلذة وهو يخفي هذه الأمنية. قال لها:

- في السوق مئات العصي.

- وهل يذهب الأولاد إلى الكتّاب للدراسة أم للضرب على يد الشيخ؟

- ولكن لماذا يضرب الأولاد؟

- ربما عذبتموه، إنه لا يضرب بدون سبب!

ولمس في صوتها لهجة أمه، واستعاد صورة الشيخ وهو يضرب الولد، قال لها:

- إنه يضرب في كل مكان، على اليدين، على الرجلين. كلب، كلب.

وعنّت له فكرة: ماذا لو سرق عصا الشيخ؟ إن الشيخ بدون عصا عاجز، لا يستطيع أن يفعل شيئاً.

قال لأخته، وكأنه يمتحن هذه الفكرة:

- سأسرق عصاه!

- السرقة حرام.

- وتصور أن هذه السرقة ليست حراماً، إلى الدرجة التي تقولها أخته. إن سرقة النقود حرام، أما أن يسرق عصا الشيخ!

وتصور جميع الأولاد يضحكون وهم يرون الشيخ دون عصا. وأعادته أخته من جديد، قالت:

- لكن الشيخ عنده مئات العصي، إذا سرقت واحدة أخرج الأخرى. وإذا عرف أنك سرقتها فإنه سيضربك أكثر وأكثر!

ولم يعرف كيف يجيب، تراءت له حزمة من العصي، عصى غليظة وأخرى رفيعة، عصى طويلة وقصيرة، عصي من كل الأنواع، واحتار، سألها:

- وجدان... ما رأيك في أحسن طريقة؟

كان وهو يطرح السؤال يريدها أن تصل إلى نفس الإجابة التي وصل إليها! إن الشيخ مجيب هو القوة الوحيدة التي يمكنها أن تدمر عصا الشيخ زكي. لم يشأ أن يقول لها ما فعله، ولكنه كان يتمنى لو تتفق معه، قالت:

- أحسن طريقة أن تكون شاطراً ومؤدباً!

ولاحظ ابتسامة على طرف شفتيها، كأنها تقول له ستضرب وتُضرب، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً، ولن يستطيع أحد أن ينقذك، وأحس أنه حزين ووحيد. سأل نفسه: والشيخ مجيب؟ الشيخ مجيب أبو الشيوخ كلهم، ألا يستطيع أن يفعل شيئاً؟

وتاه في أفكاره من جديد.

قالت له أخته بلهجة تواسيه من الغم الذي أحسه:

- كفى الآن... لن يضربك الشيخ... قم غيّر ملابسك!

قام ثقيلاً مهموماً، شعر أنه مهزوم، حتى أن ثقته بالتكية وأم النذور والشيخ مجيب لم تفرحه!

كان صوت النسوة يصل إليه ضعيفاً غير واضح أول الأمر، ولكن عندما ذهب إلى الغرفة الداخلية، التي ينام فيها والمطلة على الباحة، سمع الأصوات واضحة في أذنه، سمع أمه تحاور عمته:

قالت أمه:

- يبقى الكتّاب أحسن!

- لا مدارس الحكومة أحسن.

- طويلة يا أم رمضان، مدارس الحكومة تخلّص الروح ولا تخلص.

- يا أختي الشيخ ليس له مستقبل!

- لكن كم سنة يجب أن ننتظر حتى ينتهي الأولاد من

مدارس الحكومة، وبعد لحظات أضافت: يمكن أكثر من عشر سنوات!

- ومع ذلك تبقى أفضل!

- نفس الشيء.

- ليس نفس الشيء، الكتّاب زريبة للأولاد، وبعد ذلك ينتهون وهم لا يعرفون شيئاً. أما مدارس الحكومة...

- هنا يتعلمون وهنا يتعلمون!

- لكن علماً يفرق عن علم

- نفس الشيء

- طيب لماذا وضع الشيخ ابنه في مدرسة الحكومة؟

- ابنه مدلل لأمه، كل ما يريده يرغمهم على تحقيقه، ولا يريد أن يصير مثل أبيه، أما أولادنا، المهم أن يفكوا الحرف، وبعد ذلك أعمالهم حاضرة!

- كلهم مع أبيهم... يعملون في الدكان؟

- أبو ماجد هذا رأيه... والرأي رأيه!

- وشعرت أن أمي تنهار. أعرف هذه الحالة، إنها لا تعني كلماتها بعض الأحيان. تكابر، تحاول الانسجام مع أبي... الآن، أحسّ أن أمي ضعيفة، مغلوبة... وبدأت أستعيد كل شيء:

عبد الرزاق مدلل. كل شيء يريده يصير، مدارس الحكومة، زريبة، الدكان!

تصورت في تلك اللحظة الشيخ زكي رجلاً ضعيفاً مسلوب الإرادة، تماماً مثل أمي، وإلا لضرب ابنه، لأرغمه على المجيء إلى الكتّاب، ولكن لماذا يضرب الأولاد هكذا؟ لو كان قوياً لضرب ابنه!

المساء يتقدم، وحركة البيت تتغير بطيئة أول الأمر، ثم بسرعة، بعد أن قامت المرأة الغريبة وودعت أمي وعمتي.

نصب الفراش لأبي في الباحة الداخلية، قريباً من البركة، وتحت شجرة الليمون، وعلى الفراش صفت وسائد كثيرة، ثم ملئت الجرار، ووضعت على طرف البركة وسكب عليها الماء من الخارج، وإلى جانبها وضع صحن من التين مغطى بقماش رقيق، كما ألقيت داخل البركة بطيخة لتبرد، كما تقول أمي.

إن المراسم التي تُهيأ لأبي تشعرني بالانزعاج، ثلاث أو أربع نسوة يتراكضن في كل الأنحاء بشيء من الاضطراب الممزوج بالانتظار الفرح، والابتسامات ترتسم ببطء على الشفاه، وكأنها تستعد. ثم مداولات بين أمي وعمتي، عما يجب أن يقال لأبي، وأسمع الأصوات:

- لا تذكري له شيئاً عما وقع بين أم جعفر وابنها، إن ذلك يزعجه!

- ما رأيك لو قلنا له عن فرح بنت أم عصمت؟

- ويجب أن يزور أبا ممدوح لأنه طهّر ابنه أول البارحة!

- سوف أقول له إن جارنا أحمد النجار يريد أن يهدم بيته

ويبني مكانه عمارة، ولا أعرف إذا كان سيحجب عنا الشمس أم لا!

وتظل المداولات مستمرة حتى يصل موكبه، تصل أول الأمر طليعة الموكب: أخي سامي مع ابن عمتي رمضان، يحملان خبزاً وبطيخاً أو لا يحملان شيئاً. وبعد ذلك بلحظات يدخل أبي وإلى جانبه أو بعده بخطوة ماجد.

تسارع أمي لتخلع عنه سترته. كان يبدو أغلب الأحيان متعباً، ولم أره في حياتي إلا كذلك، يعطيها ظهره ويداه ممدودتان، فتنزلق السترة عن كتفه بسرعة، ثم يجلس على طرف الفراش، ورجلاه على الأرض، وتركض أختي سارة لتنزع له حذاءه. أما وجدان فإنها تحضر الإبريق والطشت، رضية تحمل المنشفة وتصب على يديه الماء، أما رجلاه فإنه يصر على أن يغسلهما دون مساعدة أحد!

كانت الحفلة تبدأ خطوة بعد أخرى، وخلال ذلك يخيم الصمت، فلا يسمع سوى صوت الماء ينحدر، أو صوت أبي يردد بعض الكلمات مع حركاته البطيئة المتأنية وهو يمسح وجهه أو أذنيه، ولا يجرؤ أحد خلال هذه الفترة أن يتحدث إليه أو يسأله، وإذا صادف وتذكر شيئاً، فإنه يتوقف قليلاً ويلتفت إلى أمي ليسألها:

- هل أحضر الحمال كيس الفحم؟

عندما ينتهي يستلقي على الفراش، يستلقي على ظهره، تكون الوسائد تحت رقبته وأقرب إلى الظهر. وكان يشبك

ذراعيه وراء رأسه، وبعد أن يستريح يكسر طوق الصمت، وغالباً ما يدور الحديث بينه وبين أمي:

- اليوم تعبنا كثيراً، جاءتنا بضاعة جديدة، ومنذ الصباح والحمالون لا يهدأون!

- الله يعطيك العافية!

- الجو حار.

- أي نعم، حار جداً، ما مر مثل هذا اليوم.

- الليلة البارحة كانت حارة.

- أي نعم لم أستطع أن أنام.

- آب اللهاب.

- ألا تذكر يا أبا ماجد، السنة الماضية، في آب لم تكن الحرارة مثل هذه السنة.

- دائماً آب حار، حكمة من الله.

- نعم... نعم، ولكن لم يبقَ شيء، الله يخلّص الصيف على خير.

- الحرارة ضروريّة من أجل أن ينضج العنب والتين! لكل شيء سبب.

- والبطيخ. أضاف أخي سامي وهو يمر ويسمع الحوار بين أمي وأبي. يرفع أبي رأسه قليلاً، وينظر إليه نظرة لا أعرف كيف أفسرها. ويغيب سامي دون أن تصيبه نظرات أبي. وتبدأ فترة صمت.

كان أبي يحب التفكير والتأمل. كان يستغرق في التفكير فترات طويلة، ولكن ملامح وجهه لا تتغير أبداً. إنها ثابتة حازمة أغلب الأحيان. ومن صفات أبي أنه يحب الأمثال والحكمة. ويحفظ منها الكثير. وعندما اشترينا الراديو، وكان ذلك في وقت مبكر (وله قصة)، كان يحرص على أن يسمع أخبار لندن. وبعد الأخبار نلاحظ أنه يغيب عنا فترات طويلة، إذ يقل كلامه ويتجهم وجهه حتى يبدو صلباً قاسياً، وبعد أن ينتهي من المشكلات التي فكر فيها يهز رأسه قليلاً كأنه يفيق من حلم ويستعيد علاقاته بما حوله.

هكذا عرفت أبي: متّزناً في كل شي. كان يقول ذلك ويؤكده كثيراً. كان متّزناً، لم أعرف معنى هذا إلا في وقت متأخر، في أكله وملبسه وأثاث بيته. أما حبه للحكمة فقد كان يطغى على كل شي ويسبب لنا كآبة لا تنتهي، إذ لا يكاد يسمع قصة أو يرى شيئاً إلا ويعلق عليه، وغالباً ما ينتهي التعليق بحكمة أو قول مأثور وبعض الأحيان بآية قرآنية. وفي ذلك كله يحرص على أن تكون عباراته واضحة متأنية، ويحرص أيضاً أن يوجه كلامه إلى كل المحيطين به، ينظر في وجوههم، يتوقف، يسأل إن كانت كلماته واضحة وفُهمت. يعيد المقاطع الأخيرة من الفكرة التي يحكيها. ويستعمل لازمة يرددها بين مقطع وآخر!

لم أكن أهوى مثل هذه الجلسات، ولكن كان يطيب لأبي أن نجلس حوله. لقد أصبحت أماكننا معروفة لا تتغير إلا نادراً،

وأصبحت أدوارنا معروفة أيضاً. من يشتري الخبز. من يلقي الزبالة. من يعطي الجرة لأبي حين يريد أن يشرب. من يغلق الباب وراء عمتي عندما تنتهي السهرة. لقد حفظنا هذه الأدوار، وإذا تغيرت فلأسباب قاهرة ولفترة قصيرة أيضاً، لتعود بعدها إلى دورتها الأزلية.

تذكرني أبي في وقت متأخر، تلك الليلة، فبعد أن استغرق في التفكير وقتاً طويلاً، عاد إلى نفسه وعاد إلينا، انفتحت عيناه على اتساعهما، بعد أن قال كلمة ومثلين وردد كلمة الحمد لله مائة مرة.

اكتشف فجأة أني كنت قد ذهبت إلى الكتّاب في ذلك اليوم، نظر إليّ وكأنه يراني لأول مرة. طلب إليّ أن أقترب منه، وبعد أن غيّر جلسته واطمأنّ إلى وضعه الجديد، قال:

- لقد كبرت، أصبحت رجلاً، كان يتكلم وكأنه لا يتحدث إلى أحد، ثم التفت إليّ وسألني: كيف كان الكتّاب؟ ولم أجد كلمات أجيب بها. ماذا أقول؟ هل أشتم الشيخ؟ هل أقول إني سعيد؟ شقي؟ لم أعرف. بعد فترة صمت بدت لي طويلة، قلت له:

- اسأل ماجد وسامي.

- لا، أريد أن أسألك أنت.

- أنا جديد، ولا أعرف شيئاً.

- وكيف كان الشيخ زكي؟

وتجمعت في رأسي آلاف الأحزان. لم أكن أريد أن أكذب، ولا أستطيع أن أقول له إن هذا الشيخ كلب وإنه يضرب. كنت أفكر أن أقول له الحقيقة، وكدت أن أرتمي على صدره وأبكي، وتمنيت أن أقبّله وأقول له أن يخلصني، لكن رغبة الهرب طغت على كل شيء. كنت أفكر أن أهرب منه وأختبئ وراء أمي!

تاهت أفكاري. تصورت أن لا أحد في هذا العالم يفهمني، لا أحد معي، حتى أمي تخلت عني. وأحسست بالحزن. كان حزناً ثقيلاً يتراكم فوق صدري، فتضطرب له أنفاسي، وأرى غمامة سوداء أمام عيني، ودون رغبة مني وجدتني أبكي وأبكي. كان صوتي يعلو دون أن أستطيع منع نفسي من البكاء!

لم أكن أريد ذلك، ولكني لم أستطع أن أمنع شيئاً في داخلي يتفجر، لقد حصل كل شيء فجأة في لحظة واحدة تجمعت وانتهت بموجة من البكاء الحاد. وقبل أن أسمع كلمة من أحد، ودون أن أنظر حولي نهضت بسرعة وهربت!

واصل أبي سهرته مثل كل ليلة، كان صوته العميق البطيء يخرج من فمه بصعوبة، وأمي تردد وراءه كل ما يقوله، وفي فترات يخيم الصمت، ثم تعلو الأصوات من جديد.

كنت في سريري لا أعرف ماذا أفعل وكيف يجب أن أتصرّف، هل أبقى في مكاني؟ هل أعود؟ كان وجهي على السرير، وتمر عشرات الصور، تمر في رأسي، ولكن لا تبقى

أية صورة أكثر من لحظة، ثم ترتمي عليها صورة أخرى، فتبدو الألوان متداخلة: حمراء، زرقاء، بيضاء، زرقاء بلون القطط، زرقاء بدون لون!

وأخيراً سمعت ضجة الرحيل، سمعت صوت سامي يزفر وهو يرتمي في سريره، قريباً مني.

أطفئت الأضواء، ماعدا السراج الصغير الذي وضع في الدهليز، ولم تكد تمر دقائق حتى وجدت بعدها أمي تنزلق في فراشي.

* * *

7

كانت أنفاس سامي تتردد مضطربة أول الأمر، ثم بدأت تستقر وتنتظم، إنه الآن ينتظر. صحيح أن صوته قد انقطع، لكن ربما لم ينم بعد، وقد تكون عيناه مفتوحتين في الظلمة. لقد رأى أمي وهي تدخل الغرفة وتنام إلى جانبي. إنه الآن ينتظر شيئاً مثيراً، لكن لن يراه، لن أتكلم، ليست لدي أية رغبة للكلام، لن أجيب على أسئلة أمي... ولماذا تحاول الآن استرضائي؟ أنا لا أريد منها شيئاً، كان يجب أن تقف إلى جانبي منذ البداية، ولكنها تخلت عني في اللحظات الصعبة.

شعرت أني منبوذ مثل كلب، ولا تربطني بالعالم أية صلة، حتى أمي التي كنت أجلّها تبدو لي مثل شبح، إنها أقرب إلى صورة أبي، لماذا تأتي خفية بعد أن نام الجميع؟ هل تريد مني أن أموت؟

وضعت يدها على رأسي، فبدت اليد غريبة يابسة وهي تتخلل شعري بحركة لا تقصدها، إنها مثل عادات كثيرة تقوم بها دون معنى. استبدت بي رغبة للصراخ، أردت أن أبعدها، أن

أبعد يدها، أن أبتعد عنها، سألت نفسي: هل تريد أن تضحك عليّ؟ هل تتصور أن كلمة وكلمة أخرى مع ابتسامة تنهي كل شيء؟ إنها مخطئة، لا أريدها، لتذهب عني!

دفنت وجهي أكثر في الوسادة، كنت أحسّ بالحرارة، بالضيق، صممت ألا أبكي، لتذهب عني، لتبق مع زوجها. أما أنا فسوف أعرف كيف أتغلب على الشيوخ وحدي، سأسرق عصا الشيخ زكي، سأدفنها في الأرض، إن للأولاد الصغار أهلاً يدافعون عنهم، لكن أحسست بأمي مثل شيء يذوب، يتلاشى، أحسست أنه لم يعد لي أهل، وليس لأي ولد في الكتّاب أهل. الأولاد يواجهون الشيخ وحيدين، يواجهونه باستسلام، ليضرب، ليضرب حتى يتعب. كم عصا يتحمل الإنسان؟ مائة؟ ألف؟ ولكن كم هي الألف عصا؟ إذا ضربني لن أبكي، لن أصرخ، سوف أتركه يضرب حتى يتعب، لن أخفي عينيّ، سأظل أنظر إليه، سوف آكله بعيوني، لا أعرف لماذا يتضايق الكبار من نظراتي! هل تخيفهم؟ هل كل الصغار يخيفون الكبار بنظراتهم؟ لو نظرنا كلنا إلى الشيخ في وقت واحد لحولناه إلى رماد، إلى قطّ مجنون يريد أن يفلت!

وارتاح وهو يرى الشيخ كومة من الرماد، ثم تصور الكومة مبعوجة من وسطها، ولها أذرع، وفي نهاية الذراع اليمنى عصا، وعندما استوت الكومة مع الأرض تماماً ابتعد قليلاً وهو يضرب المكان بالعصا، تطاير الرماد، دخل إلى عينه، إلى فمه، أحس طعمه مالحاً كريهاً، وبصق، لا يريد أن يبقى من الشيخ أي أثر،

دخل الغبار إلى أنفه، بصق مرة أخرى، بدأ ينفض الغبار عن وجهه، عن ثيابه، عن حذائه، تراجع قليلاً إلى الوراء. أحست أمه بحركة، غيرت وضع يدها، بدت له حركة اليد في تلك اللحظة أقرب إليه، وهو يفكر سمع أمه تقول:

- لماذا بكيت، يا حبيبي؟

- ...

- هل أنت مريض؟

وأحس يدها ثقيلة متخشبة مرة أخرى. وعندما ظل صامتاً سألته من جديد:

- هل تضايقت في الكتّاب؟ هل ضربك الشيخ؟

وصمم ألا يجيب، لقد قال لأمه كل شي، كانت تستطيع أن تساعده فتقول لأبيه إن الشيخ زكي يضرب الأولاد. إن الكتّاب زريبة، سجن. وإن الشيخ الأعور يُجلس الصغار مع الموتى، ولكن أمه لم تتحرك، تركته وحيداً: لماذا تتكلم الآن؟ إن كلماته عديمة الجدوى، ستذوب قبل أن تصل إلى أذن أبيه.

وعاد يسمع صوتها من جديد:

- لقد فرحنا كثيراً، قلنا سامح صار رجلاً ويذهب إلى الكتّاب مع إخوته. التفتت إليه وقد غيّرت صوتها، غداً ستصبح أشطر إخوتك، وأشطر الأولاد، وبعد ذلك تختم وتكبر ويفتح لك أبوك دكاناً كبيراً، وتعمل وتكسب، وعندما تكبر تتزوج ويأتيك أولاد وتصبح غنياً.

مرت الكلمات مثل العيدان اليابسة التي يحملها النهر عندما يفيض، مرت سريعة دون أن تثيره، دون أن يهتم لها، كلمة واحدة طفت فوق الكلمات، رنت في أذنه، زم شفتيه وهو يستعيدها، وقال لنفسه بتحدٍّ: لن أتزوج.

وعادت أمه تسأله:

- ماذا حصل...؟ احك يا حبيبي،لقد أغضبت أباك كثيراً.

- لا شيء.. لا شيء، اذهبي عني!

- لماذا بكيت؟

- أنا حر!

وحاول أن يفهم الكلمة التي قالها. لقد سمع إخوته يقولونها كثيراً. كيف يكون حراً؟ واشتبكت في رأسه الصور: أن ينام، أن يأكل، أن يبكي. هذه هي حريته، أما أن يذهب إلى الكتّاب، أن يجيب على أسئلة أبيه، أن يكبر ويتزوج. هل هو حر في ذلك؟ ولو أراد كيف يكون حراً!

وسمع صوت أمه يتسرب إليه ناعماً هذه المرة:

- أدر وجهك لنتفاهم. كل شيء بالتفاهم!

وصرخ في وجهها، بعدما أدار رأسه لحظة صغيرة ويده تدفعها:

- لا أريد، اذهبي عني.

- هل أحضر لك شيئاً تأكله؟

- لا

- ولكنك لم تأكل. وانزلقت يدها تحته تحاول أن تديره ناحيتها. تشبث بطرف السرير، وأصبحت حركاته أقرب إلى الخشونة. قالت له وقد تغيرت لهجتها:

- آذيتني. سوف أغضب منك وأتركك لأبيك، أنت تعرفه!

وشعر في نفسه ميلاً لأن يوقف انهيار علاقته بأمه، ولكنه لا يريد أن يستسلم. سحب يده وترك مسافة واسعة بينهما. رفع رأسه قليلاً ليرى وجهها. التقت عيونهما وابتسمت؛ لكنه عاد وخفض رأسه بسرعة دون أن يستجيب لابتسامتها، وبعد لحظة سمعها:

- سوف أجلب لك قليلاً من الأكل.

- أمي.. لا أريد

وشعر أن كلماته ضعيفة، وكأنها تشكل جسراً من التفاهم بينه وبين أمه. سألته من جديد:

- فوالة؟

- لا، وأحس أنها تغلبت عليه. كان يحب ألا يتسرع، فقد رآها تمسك بيده وترفع عنه الغطاء، ثم تقول بصوت بدا له رقيقاً عطوفاً:

- أخوك نائم. تعال، لنخرج قليلاً. هناك يمكن أن نتحدث!

لا يعرف هل يقاوم؟ هل يستجيب؟ تصور أن تقوده إلى غرفة أبيه، فاضطرب، لا يريد أن يعتذر، غداً يكون الأمر قد

انتهى، أما الآن! ولاحظت أمه اضطرابه، مرت لحظات بدا خلالها متردداً، ولم يحس إلا وهي تقوده، ويخرجان إلى الباحة قرب البركة.

بدت له السماء قريبة. قريبة جداً، مشدودة مثل جلد بقرة، والنجوم تشع إشعاعاً جامحاً، كأنها تريد أن تنفجر. كانت النجوم قريبة، ودرب التبان مثل أكوام الصوف المنفوش تملأ جزءاً من السماء وشعر أن أمه تسيطر عليه، فقد تذكر الميزان وبنات نعش ودرب التبان وليلى: وتذكر نجوماً أخرى كانت أمه تشير إليها في ليالي الصيف وتحكي قصصها. لم يكن يسمع ما تحكيه، لأنه كان ينظر إلى النجوم بشغف، كان يترك لخياله أن يكوّن صوراً جديدة. تصور بنات نعش بوضوح وهن يحملن تابوتاً، ورأى في التابوت رجلاً مقتولاً... وقد بدأت البنات والتابوت بالسير منذ وقت طويل لا يعرفه أحد، ولن ينتهي سيرهن قبل أن يأخذن بالثأر. وتصور ليلى فتاة حزينة شاحبة الوجه، تسهر الليالي تنتظر قيساً، ذلك المسافر الذي لا يأتي، وعندما يطول غيابه وتيأس من عودته، تبدأ بالبكاء. كانت تبكي كل ليلة، فتبدو دموعها مشعة متألقة أقوى من كل النجوم. وقد أحب هذه النجمة كثيراً، وتمنى لو يصبح قيساً ويعود إليها لكي ينتهي بكاؤها!

لا يدري كيف أخطأ وسأل أمه:

- أمي... من قتل أباهم؟ ومد إصبعه وأشار إلى نجوم بنات نعش.

فاجأها السؤال، تماسكت بإصرار تريد أن تبقيه في جو تلك الليلة، قالت:

- تقول القصص إن نعشاً جاء يوماً ليملأ قربته بالماء، وبعد أن انتظر طويلاً حان دوره، لكن رجال قبيلة أخرى منعوه. حالوا بينه وبين الماء، فجلس مكسور الخاطر، ولما طال انتظاره جاءت إحدى بناته تستطلع، ثم جاءت أختها، ثم الثالثة، ورجال القبيلة يمنعونهم من الماء، فما كان من نعش إلا أن أنذرهم، فاستخفوا به، ولم يلتفتوا إليه، قالوا له لا يرد الماء الآن إلا الرجال، اذهب وارجع مع النساء. فنظر نعش إلى بناته بحزن، ثم رفع يده إلى السماء وطلب من الله أن ينشّف الماء، فاستجاب الله وانقطع الماء. فغضب الرجال وقتلوا نعشاً. أما بناته فقد أقسمن ألاّ يدفن أبوهن حتى يأخذن بثأره... ومنذ ذلك الوقت والتابوت يسير والثأر لم يؤخذ!

- ولكن لما لم يحاربهم، وتركهم هكذا يقتلونه؟

- لقد كان وحيداً يا بني... وهم كثيرون.

- وبناته؟

- إن البنات لا يقدرن على القتال.

- وكيف سيأخذن بثأره؟ قال «ثأره» دون أن يدرك معناها، ولكن أحس أنها تعني شيئاً ضد الذين قتلوه.

- عندما يتزوجن وينجبن أطفالاً، والأطفال يكبرون ويصبحون رجالاً سيأخذون بثأره!

- كيف يتزوجن وهن يحملن التابوت؟

ولم تستطع أمه أن تجيب، سادت بينهما فترة صمت، وسأل من جديد:

- ولماذا لم يطلب من الله أن يقتل الرجال بدل أن يقطع الماء؟

أجابت أمه بنفاد صبر:

- إنها قصة يا ولدي... ربما كانت حقيقة وربما كانت خيالاً!

- وهل كل القصص هكذا يا أمي؟

- إن القصص يا بني من الخيال، يخترعها الإنسان لكي يقتل الوقت والملل!

توقف، لكن أسئلة كثيرة تموج في رأسه، قال لنفسه: إذن ما يحكيه الناس كذب!

كان يريد في هذه الليلة أن يسأل عن أمور كثيرة، لكن بعد هذه القصة وجد أن أمه ترتكز على ساق واحدة. تردد، سأل نفسه بضيق... لماذا يمتلئ رأسي بهذه الأسئلة؟ كان يريد أن يفهم لماذا تبدو الأمور هكذا؟ لماذا تبدو خاطئة وغير مفهومة؟ وبعد أن فكر في كل شيء بغموض، عاد يسألها:

- أمي... ما هو الموت؟

رفعت يدها إلى فمها، تطلعت إليه باستغراب مذعور، حاولت أن تكذب ما سمعته، لكن نظراته اخترقتها بهدوء

صامت، بعد فترة قالت له:

- لماذا هذه الأسئلة يا سامح؟

- أريد أن أعرف يا أمي! كانت نظراته قوية، آسرة، وأمه تجد نفسها محاصرة ولا تعرف كيف تفك الحصار.

- الموت هو الموت، يا ولدي، أي أن ينتهي الإنسان!

- وكيف ينتهي؟ إلى أين يذهب؟

- إن الموت نوم مؤقت، ينام الإنسان حتى يحين وقت الحساب!

- وناكر ونكير؟

ولم تعرف كيف تجيب. إن ناكر ونكير حساب عاجل، أما الحساب النهائي فذاك الذي يكون في وقت متأخر.

وتساءلت: لماذا يكون الآن، ثم مرة أخرى؟ إنها لم تسأل نفسها مثل هذا السؤال، ولم تفكر فيه. احتارت كيف تجيب، سألته في محاولة لإنهاء المناقشة:

- ولماذا هذه الأسئلة يا سامح؟

فكر، مرت في رأسه صورة الشيخ صالح والتابوت والأولاد الذين يذهبون لمساعدته، وتصور نفسه يجلس مذعوراً أزرق الوجه، إلى جانب الميت في الجامع، انتفض وقال:

- لقد أرسل الشيخ زكي اثنين من الأولاد لمساعدة الشيخ صالح!

- وما علاقة ذلك بالموت؟

وأحس أن أمه تحتال عليه، إذ ما كاد يذكر اسم الشيخ صالح حتى علت وجهها حالة من القرف والكراهية. إن مجرد ذكر الشيخ صالح تعني تصور أعماله... تصور الموت. ووجد نفسه يندفع ويقول:

- ما علاقة الشيخ صالح بالموت؟ من الذي يغسل الموتى؟ من يدفنهم؟

- لكن ما علاقة الأولاد بذلك؟

- إذن ماذا يفعلون عند الشيخ صالح؟

لا تعرف أمه أية مساعدة يمكن أن يقدمها الأولاد للشيخ، استنكرت في أعماقها أن يذهب الأولاد لمساعدته، لكن لا تستطيع أن تقول ذلك الآن. حاولت أن تتصور شيئاً معقولاً تقوله، مرت في رأسها مهمات الشيخ، فلم تجد غير الموت والتوابيت وطاولات الغسيل. لم يخطر ببالها أن الشيخ صالح مؤذن وإمام، كما لم يخطر ببالها أنه إنسان، وبعد أن طال بينهما الصمت قالت:

- ألم تسأل الأولاد الذين ذهبوا عنده ماذا فعلوا؟

- لم أسألهم.

وساد بينهما الصمت، لقد تغلب على أمه، شعر أنه قوي، ووجد في نفسه رغبة لأن يستمر في هجومه، سألها:

- أمي... لماذا يضرب ناكر ونكير الموتى بعصي في رؤوسها مسامير؟

- من قال لك ذلك؟

- الجميع يقولون، وعندما مات الشيخ صادق، الأولاد قالوا ذلك!

- إنهم لا يضربون إلا الكفار، أهل الشر.

- ولماذا يضربونهم؟

- لأنهم كفار وأشرار!

- من هم الكفار... يا أمي؟

ووجدت نفسها عصبية، لا تعرف كيف تجيب، لكن لا تستطيع أن تهرب من الإجابة. قالت بعد تردد:

- الشرير هو الذي يؤذي الناس، الذي يسرق، الذي يأكل أموال العالم.

أرادت أن تستمر، لكنه سألها:

- والكافر؟

حاولت أن تجيب جواباً مختصراً وواضحاً، فكرت: من يكون كافراً؟ أرادت كلمة تنهي المناقشة، بعد تفكير قالت:

- الكافر مثل سالم اليماني... أتعرفه؟

- أعرفه، لكن اليماني لا يؤذي أحداً، الناس هم الذين يؤذونه، يضربونه بقشور البطيخ، يضعون أمامه قشور الموز، يمزقون ثيابه، يضربونه، وقد رأيتهم يوقعونه على وجهه!

احتارت. إن ما يقوله تعرفه، ولكن تعرف أن هذا الإنسان الذي لا يكف عن السكر هو مثل متعارف عليه للكافر، قالت:

- إنه لا يعبد الله، لا يصلي، لا يصوم، فقط يسكر ويخمر!

- لكنه لا يؤذي أحداً!

- على الإنسان أن يكون صالحاً، أن يصلي ويزكّي، وأن لا يقوم بأي عمل يحرّمه الله تعالى!

- وكيف يعرف الله أن الشخص قام بعمل حرام؟

- على أكتاف كل إنسان ملائكة، ملك للحسنات على الكتف اليمنى، وآخر للسيئات على الكتف اليسرى، وهذان الملكان يكتبان كل شيء!

- يكتبان كل شيء؟

- نعم... نعم، ملك الحسنات يكتب الحسنات، وملك السيئات يكتب السيئات!

- كيف يكتبون؟ هل لديهم أقلام ودفاتر؟

- ولم تستطع أن تجيب، إنها مقتنعة أن كل شيء يكتب، لكن لم تفكر كيف يسجل الملائكة، كيف يكتبون، هل لديهم أقلام، أم يكتبون بشيء آخر؟ إن هذه الأسئلة التي كانت ثاوية في أعماقها مثل حقائق لا يتطرق إليها الشك، تندفع الآن إلى السطح، بدأت تفكر فيها، بدأت تحس أن تصوراتها لم تكن دقيقة وواضحة، قالت له بنفاد صبر:

- إنهم يا ولدي يكتبون بقدرة الله تعالى!

- ووافق، وخطر له أن يسألها من جديد، فكر قليلاً، ثم سأل:

- وكيف يأكل الملائكة يا أمي؟ وأين يبولون؟

قالت وكأنها فوجئت تماماً، بالسؤال:

- إن الله يعطيهم الأكل، وندمت على هذه الإجابة السريعة، فقد سمعت يوماً أن الملائكة لا يأكلون. لم تحاول أن تتراجع. أما هو فقد فكر قليلاً، ثم سأل:

- وهل يلبسون طرابيش... يا أمي؟

ولم تعرف أتضحك من السؤال أم تعتبره مثل الأسئلة الأخرى وتجيب عليه، سألته بعد صمت:

- ولماذا طرابيش؟

- إن الشيخ زكي يلبس طربوشاً!

- وهل الشيخ زكي ملاك؟

- إنه يعرف القراءة والكتابة!

كانت تريد، منذ أن جلسا قريباً من البركة، أن تتكلم معه عن الكتّاب، لكنها تجد نفسها الآن وقد ذهبت بعيداً، لم يتكلما عن الكتّاب، لم يحك لها عن سبب بكائه، تكلما عن أمور لا تخطر على بال. وها هي الآن تقف في مواجهته عاجزة ضيقة الصدر وتملأها أسئلة لم تفكر فيها كما ينبغي، ولا تعرف كيف تجيب عليها. وبدأت تفكر فيما قاله من جديد!

حاولت، في وقت من الأوقات، أن تسيطر على الموقف

مرة أخرى، لكنها تشعر أن بعداً كبيراً يفصل بين رغبتها عندما خرجت معه ووضعها الآن. سألته، وهي تحاول أن تعيده إلى البداية:

- لماذا بكيت عندما سألك أبوك عن الكتّاب؟

وشعر أنه إذا أجاب على سؤالها، سيبدو ضعيفاً، سيفقد المركز الذي حققه، نظر إليها نظرة وديعة مستسلمة، ثم قال:

- أمي... أريد أن أسأل آخر سؤال... وبعد ذلك أقول لك لماذا بكيت!

وافقت على مضض... نظر إليها قليلاً، ثم زم وجهه وأخذ ملامح حادة وسأل:

- أمي... من خلق الله؟

ضاقت ذرعاً بأسئلته، وبكل شيء!

* * *

8

أخذ يستعيد كلمات أمه، كانتِ كلمات كبيرة، تهز جسده، ترعبه: حيّات لها عشرات الرؤوس، تزحف من جميع الجهات، ونار جهنم حمراء مثل الدم، تحرق العيون والشعر والوجه، تحرق كل شيء حتى العظام. وبعدما يحترق الإنسان تماماً يمسكونه بملقط ويغطسونه في ماء بارد، أبرد من الثلج، ويعود مثلما كان، ويحرق مرة ثانية، ويصرخ، والنار حمراء مثل الدم، تلفح من كان بعيداً عنها مئات الأمتار. فكيف من بداخلها يتقلى ويتشوى؟ وأسياخ حديد حمراء تكوي اللسان والجبين، ويصرخ الكافر يقول يا ليتني كنت تراباً، ويحترق مرة أخرى، ثم يغطس في ماء بارد زمهرير، ويعود ليحترق من جديد!

إن الله هو الذي خلق كل شيء: الجنة والنار، الإنس والجان، العذاب والحساب، الله هو الذي يخلق، ولا أحد يخلق الله.

حاول أن يتصور الله، تصوره كبيراً كبيراً مثل الجبل تماماً،

إنه أكبر من أي شيء! ولكن كيف يأكل؟ أين ينام؟ هل عيناه كبيرتان؟ وفمه؟ وأسنانه؟ هل يمشي؟

لم يستطع أن يتصور كل ذلك، ولمّا تعب من التفكير قال لنفسه: الله كبير، كبير جداً.

حاول أن ينام، لكنه رأى في الظلمة أشياء تتحرك، فانتابه الخوف، غطى رأسه وأنصت، كانت دقات قلبه عالية كأنها دقات جرس، تقلب في فراشه يريد أن ينام، ولكنه تصور شيئاً أسود يجثم فوقه. إن هذا الشيء هو الجن.

ستنقض عليه الجن، بعد قليل ستمزقه. جر الغطاء وأحكمه حول نفسه، أمسكه من نهايته، تمنى لو كانت أمه تنام إلى جانبه. . . لا لقد قالت له كل شيء ثم هربت، تركته للجن! شعر بالخوف. ماذا يستطيع أن يفعل؟ هل تدخل الجن إلى فراشه؟ ووضع يده على عينيه. إن الجن تهجم على العيون، تطفئها لكي لا يرى، وبعد ذلك تبدأ تمزّقه. ماذا لو صرخ؟ ولكن إذا بقي هادئاً قد لا تراه. يمكن أن تمر دون أن تمسّه. حبس أنفاسه، تجمد في الفراش، أنصت، لم يسمع شيئاً. لم يسمع سوى دقات قلبه وأنفاسه المحبوسة. شعر بالحرارة تحت الغطاء. كانت الحرارة تزداد في كل لحظة. كيف ستكون حرارة جهنم؟ تحرك قليلاً. رفع الغطاء وأسنده بيده، وظل تحته دون حركة. ستنقضّ عليه في هذه اللحظة. سمع خشة صغيرة، تجمد في مكانه. ماذا يستطيع أن يفعل؟ هل ينادي سامي؟ أمه؟ أباه؟

قال لنفسه: إذا عشت هذه الليلة، إذا رأيت صباحاً جديداً، فسوف تنقضي الأمور في الليالي القادمة بشكل آخر! سأقول لأمي أن تنام معي. سأقول لسامي أن لا ينام قبل أن أنام. ولكن ماذا أفعل الآن؟ وفكّر: إذا نشبت مخالب الجن في جسدي فسوف ينزف دمي من كل ناحية، سيتحول الفراش إلى بركة دم. يجب أن أصرخ قبل أن تهجم عليّ. إذا صرخت قد تهرب. ولكن هل تضع يدها فوق فمي وتمنعني من الصراخ؟ لأصرخ لن تستطيع أن تمنعني، صرخة واحدة على الأقل.

وصمم أن تكون الصرخة عالية قوية، وبعدها ليحدث أي شيء. سوف تفزع وتهرب إذا رأت أناساً كثيرين. سيأتي أبي ووراءه أمي. سأقول لأبي إن الجن كانت هنا، في هذا المكان بالذات، لقد رأيتها بعيني، كانت سوداء طويلة تتحرك مثل غيوم سود... ولكن عندما صرخت هربت!

وبدا له كل شيء مستحيلاً، حرك لسانه فوجده يابساً لا يتحرك، ومن جديد بدأ ينصت! ما تزال دقات قلبه عالية كأنها صوت أجراس، وبين لحظة وأخرى يسمع أنفاس سامي. سامي ينام الآن، لا يرى شيئاً، لا يسمع. ما أسعده سامي. أه لو كنت مكانه.

ورفع الغطاء بهدوء، مد رأسه يريد أن يرى أين أصبحت، مد رأسه بحذر، مد عينيه إلى اليمين أول الأمر. لم ير أي شيء، مد رأسه أكثر. نظر بعينيه الاثنتين. نظر حوله، نظر إلى فوق، إنه لا يرى شيئاً. هل تكون قد رحلت؟ لا يمكن... لا

يمكن أن ترحل بهذه السرعة. لماذا جاءت إذا كانت سترحل هكذا؟ إنه ليس متأكداً. لا يمكن أن تترك الغرفة. إنها تختبئ في مكان ما، وسوف تظل مختبئة حتى إذا رفع رأسه انقضّت عليه دفعة واحدة ومزقته. ولكن أين تختبئ؟ تصور الأماكن التي تصلح للاختباء. كان كل شيء مكشوفاً: الجدران، السقف، وسأل نفسه: أين تختبئ؟ هل تختبئ تحت السرير؟ ستمد أيديها بهدوء لتقتلعه. بعد لحظة سيجد نفسه وقد أصبح على الأرض. وهناك ستأكله، ثم تترك عظامه. وَتَصَوَّر نفسه كومة من العظام!

اقترب من حافة السرير، أنصت، تطلع تحت سرير سامي، لم يرَ شيئاً. مد يده بهدوء. قال لنفسه سأصطدم بها. إن أجسامها قاسية وباردة. وماذا سيفعل إذا اصطدم بها؟ وأمسك بالسرير جيداً. إذا حاولت أن تنتزعه من الفراش فلن يكون الأمر سهلاً. سيقاوم. وتذكر كيف أن سامي يعجز عن جره من السرير إذا أمسك حافته. كان سامي عندما يريد أن يجره، يجر السرير معه. كان يضطر لأن يرفعه، أن ينام فوقه لتتخلخل يده، ثم ينتزعها. لا أحد يستطيع أن ينتزعه من سريره. ولكن الأشباح قوية. الأشباح والجن شيء واحد. لها أسنان حادة، وعيون حمراء، وأيديها قوية تفتت الصخر. سوف تجره بقسوة. إذا جرته هكذا ستفلت يده ويسقط، أو يظل بيد واحدة. وتصور نفسه بيد واحدة مثل حسن البقال. إن يداً واحدة تكفيه. حسن يعمل كل شيء بتلك اليد. يحمل البطيخ. يحمل الخضار. ينزل تنكة الحلاوة ويضعها في الميزان دون معونة أحد! تكفيه يد

واحدة. لتأخذ الجن اليد الثانية وتذهب، فقط لتتركه حياً. لا يريد أن يموت!

وامتدت يده ببطء تحت السرير. رفعها ثم خفضها. سيصطدم بها الآن. امتدت يده أكثر، وصلت إلى منتصف السرير. ولكن هل الجن صغيرة الأجسام لدرجة أن نصف السرير يكفيها مكاناً للاختباء؟ إنها كبيرة. لقد رآها تملأ الغرفة. كانت سوداء تتحرك بسرعة. لا يمكن أن تبقى تحت السرير. ولكن أين تختبئ؟

ولم يعد يعرف شيئاً. سحب يده ومد جسده حتى صار قسمه الأعلى كله في الهواء. ونظر دفعة واحدة تحت السرير. كان شعاعاً باهتاً أصفر مثل أسنان الجن يتسرب من النافذة. لم ير شيئاً. أنصت. لم يسمع سوى أنفاس سامي تتردد. نظر حوله مرة أخرى، ولكن لم ير إلا النور الأصفر الشاحب الذي ينزلق من النافذة.

ما زال خائفاً. يرتجف. ودقات قلبه ترن ولا تكف عن الرنين. ماذا لو أشعل النور الآن؟ سيرى الجن والأشباح بوضوح. وسوف تخاف. إنها تخاف من الأضواء. تختبئ في الأماكن المظلمة.. آه لا يستطيع الآن أن يغادر فراشه ويشعل النور.. والظلمة التي تحمي الأشباح.. خمس خطوات لكي يصل مفتاح النور.. لن تتركه يخطو خطوتين. سوف تهجم عليه وتمسك به من رقبته. ستضع أصابعها في عينيه. ليتركها، إذا تركها لن تقترب منه. أما إذا اصطدم بها فسوف تفتك به. ستقول

له: كنت لا أنظر إليك، ولا أريد أن أقتلك.. أما الآن.. فأنت الذي آذيتني.. خذ.. خذ. وينتهي كل شيء في لحظة!

وأحس بالعطش. هل يستطيع أن يذهب ليشرب؟ إذا وقف ستنقض عليه، أما إذا رأته نائماً فسوف تتركه. تطلع إلى السقف. انقلب على ظهره. أمه لا يراها الآن. هل غادرت الغرفة؟ ولكن الأبواب والنوافذ مغلقة! إنها مثل الهواء تدخل من الشقوق الصغيرة، من تحت الباب، من أي مكان! إذن الجن ليست صلبة الأجسام، وإلا لما استطاعت أن تخرج من الشقوق! هل هي كبيرة؟

ما زال خائفاً. قلبه لا يكف عن الاضطراب والخفقان. انقلب على جنبه الأيسر. انقلب على جنبه الأيمن. إنه لا يشعر بالراحة.. ولكن لم يعد يرى الجن. هل تكون مختبئة وراء الباب تنتظره، حتى إذا قام ليشرب أمسكت به وخنقته؟ وقرر أن لا يشرب. الجرة على حافة البركة.. لا لن يذهب إلى هناك.. يمكن للجن أن تغرقه بالماء؟ لا يريد ماءً. ويحس بالعطش أكثر. ولكن لن يغير مكانه. سيتحمل العطش، العطش أحسن من الموت. الموت بشع. وبعد ذلك ناكر ونكير وجهنم! ونار حمراء عالية وحيات لها عشرات الرؤوس. ومصّ شفتيه. شعر بالعطش أكثر من قبل. ماذا لو احترق في جهنم، هل يستطيع أن يفعل شيئاً؟ تقول أمه إن الكفار سيظلون في النار إلى الأبد.. إلى آخر الدنيا. ماذا تعني إلى الأبد؟ ألف سنة؟ والجن؟ هل هي في جهنم؟

وانقلب مرة أخرى على ظهره. كان السقف قريباً، أقرب من كل الليالي. لو رفع يده يلامس السقف. وتساءل: هل تحرك السقف من مكانه؟ وبسرعة غيّر وضعه. انقلب على وجهه. مد يده فوق الوسادة، ومد يده الأخرى إلى جانب جسده. شعر بنوع من الراحة. قال في نفسه: النوم يحمي من كل شيء. من الجن وجهنم ومن الشيخ الكبير والصغير..

وأغمض عينيه بقوة ولم يحس بشيء بعد ذلك!

* * *

9

في صباح اليوم التالي. وهو يسير مع إخوته في طريقه إلى الكتّاب، التفت عدة مرات، التفت ليرى أم النذور. لو رآها لنظر إليها بتوسل لكي لا تنسى. لكن مع كل خطوة يخطوها إلى الأمام كانت أم النذور تبتعد.

تصورها في ذلك الصباح الخريفي تحتضن خرقه بخشوع، بعد أن حملت همساته إلى باطن التكية في الليل. بعد أن قال لأم النذور: لا تخافي.. سأحمي الصغار.. وهذا القاسي سأكسر عصاه.

وابتسم. بعد لحظات سيصل إلى الكتّاب ويرى الشيخ زكي دون عصا. وقال في نفسه: ما هو الشيخ دون عصا؟ بف.. إنه يبدو عارياً ضعيفاً. وقد يبدو محبوباً. سيتغير كلية. وفكر: سينظر الأولاد إلى الشيخ بمودة. وهو لن يكون قاسياً. سيكون مثل أب، ويقول لهم بصوت هادئ حنون: صباح الخير يا أولادي. ويرد عليه الأولاد، ويقفون إلى جانبه، فتمتد يده إلى رؤوسهم، تربت عليها. وبعد أن يتنفسوا ويعبوا من هواء

الصباح الندي المشرب برائحة الريحان والليمون، سيدخلون إلى الكتّاب. لن يجلس الشيخ مثل كل يوم على الدكة. إنه يفضل هذا اليوم أن يقف، أن يتجول، أن يبتسم. والأولاد يأخذون أماكنهم بصمت، ولكن دون خوف ودون عرفاء. وبعد أن يجلسوا ينظرون إلى الوجه السمين الذي أمامهم وهم فرحون، وبلهفة ينتظرون أن يبدأ الدرس!

قال لنفسه وهذه الصور تمر في رأسه: إن وجه الشيخ يشبه وجوه كثير من الناس. لا يختلف بشيء. أما المضحك فهو كرشه. إنه أكبر مما يجب. أكبر من الكروش التي رأيتها!

عندما تركوا الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى الجامع، وانعطفوا في الزقاق، ألقى نظرة أخيرة باتجاه أم النذور والتكية وقال بصوت خافت لا يسمعه أحد: لقد فعلت كل شيء.. والآن يجب أن تفعل شيئاً يا شيخ مجيب.

ما كاد يسير خطوات حتى رأى رجلاً ومعه ثلاثة أولاد كبار يحيطون بسالم اليماني. كانوا يدفعونه مثلما لو كان حيواناً أو كرة. كانوا يدفعونه بأيديهم، بأكتافهم، وينظرون إليه بسخرية وهو يتمايل. ثم تجرأ واحد منهم وبصق عليه. واليماني بحركات غير متزنة يحاول أن يدافع عن نفسه، أن يتجنب السقوط. كان يبدو متعباً لدرجة أن رجليه لا تطيقان حمله.

كانت عيناه حمراوين. وشفته السفلى تتدلى بارتخاء ظاهر. أما سترته فقد انهدلت على كتفيه، كبيرة فضفاضة، وأحد طرفيها طويلاً طويلاً، أما الآخر فكان يرتفع مع ارتفاع اليد وقد بدت

مشقوقة حتى منتصف الظهر، وبارتفاعها كانت تبدو ملابسه الداخلية. . ملابس مليئة بالبقع والقذارة ومثقوبة في عدة أماكن.

والآن عندما يستعيد المشاهد يتذكر:

اقتربنا كثيراً. . ثم توقفنا. سمعت الرجل الذي يقود المركب يقول لليماني:

- يا يماني. . لماذا لا تتزوج حليمة؟ (وحليمة امرأة مجنونة تدور في الشوارع في الليل والنهار)

ويرد عليه اليماني بصوت متعب بطيء وبكلمات متداخلة:

- يا أخي اتركني، الله يستر عليك.

ولكن الرجل لايتركه. يدفعه، ثم يمسك بكتفه ويقول له:

- لا تتعب نفسك يا أهبل، نفقة الزواج عليّ. وإذا تزوجت حليمة فيداك في الدهن. إنها أثرى امرأة في المدينة. . ألا ترى كم ثوب تلبس؟

ويرد اليماني. وهو ينظر إلى الأرض:

- احتفظ بفلوسك لنفسك. أو أعطها للفقراء.

- أنت فقير. أنت فقير مثل سعدان. . سأعطيك إذا رقصت، ولكن أريدك أن ترقص مثل سعدان النوري!

- يا أخي اتركني بهمّي.

- اسمعوا، اسمعوا يا ناس يا عالم، الحيوان عنده هموم. الأجرب الزنديق عنده هموم. . يا ناس يا هو. . اسمعوا!

وينفجر الناس بالضحك. ويتقدم أحد الأولاد ويجر سترة اليماني بشدة فيسقط على الأرض. عندما سقط ظل جالساً ينظر إلى كل الذين يحيطون به، ثم خفض رأسه وهزه بحزن، ووضع يده اليمنى على الأرض يريد النهوض، فامتدت رجل أحد الأولاد وبقسوة ضربت اليد، فاختل توازن اليماني وارتمى على جنبه. كان وجهه على الأرض تماماً، وبدا في تلك اللحظة مثل كلب عجوز يثير الشفقة. حاول بعضهم أن يرفعه، حاولوا ذلك بِقَرَف. . وبعد أكثر من دقيقة وقف اليماني. نفضِ الغبار الذي علق بملابسه ووجهه، وتطلع إلى الناس وكأنه لا يراهم، ثم قال دون أن يخاطب أحداً:

- الله يسامحكم. وظل يهز رأسه بحزن ويتمتم بكلمات غير واضحة! وحاول من جديد أن يفك الطوق الذي حوله، ولكن الرجل الذي كان يقود الموكب انفعل ووقف في وجهه، ثم أمسك به من كتفه وهزه وهو يقول:

- الله لا يسامحك. اخجل من نفسك، من شيبتك. بدل أن تسكر اعبد ربّك. كل الليل والنهار سكران! عيب. وليس عندك حياء أو ناموس. دم ما عندك. أنت رجل كبير. أكبر من الحمار. . عيب. عيب!

ورد عليه اليماني دون أن ينظر إليه:

- كل إناء بما فيه ينضح. . اذهب الله يسامحك!

- لن أتحرك، أنا أشرف منك.

ونظر إليه اليماني هذه المرة وابتسم ابتسامة يائسة وساخرة، وكأن هذه الحركة عنت شيئاً للرجل فرد بعصبية وانفعال:

- أشرف منك مائة مرة. حذائي أشرف من رأسك، يا كلب!

- قبل أن تنصح الناس.. فتش حولك.. انظر إلى بيتك!

وتملك الرجل الغضب. أراد أن يضرب اليماني، أن يمزقه، لأن التعابير التي ارتسمت على وجهه تلك اللحظة كانت من القسوة على درجة كبيرة. ولكن رجلاً مرّ، وقال بصوت عالٍ ومهدد:

- ياالله يا جماعة. اتركوه. كل واحد إلى شغله! كل واحد بطريقه!

ومرت فترة صمت قاسية. تجمد كل شيء. وكأن هذا شجع الرجل فعاد ليقول:

- اتركوه.. اتركوه أحسن لكم.

وبدأ الموكب ينفض. جلس اليماني على عتبة دكان مغلق وأخذ يبكي!

أثناء ذلك زاد عدد أولاد الكتّاب الذين وقفوا. وما كاد الأمر ينتهي حتى نظروا في وجوه بعضهم وأصابهم الخوف، وبدأ تساؤل مخيف يحوم مثل طائر أسود في الرؤوس: ماذا لو عرف الشيخ زكي؟ وسمع همسات صغيرة: لن يعرف. من سيقول له؟

وقال لنفسه: وماذا لوعرف الشيخ؟ لو كان موجوداً ألا يقف؟ ألا يشارك؟

وبحركة خفية ماجت كتلة الأولاد واتجهت بصمت إلى الكتّاب.

الستارة ترتفع وتلتف على شجرة الليمون، ثم تهبط فتصفع وجوه الصغار وهم يدخلون، وتتابع حركتها البلهاء دون توقف. وما كاد يجتاز الباب ويمشي تحت الدالية حتى دهمته رائحة الأمس. رائحة ثقيلة كأنها طبقة سميكة من الهواء الساكن. التفت حوله يريد أن يرى شيئاً جديداً، لكن رأى الأرض الإسمنتية ما تزال مثل أمس، وكذلك الدالية وأحواض الزرع. التفت، فرأى النوافذ العالية بحديدها المتشابك، وأصص الريحان ثابتة في مكانها وراء الزجاج المغلق... فشعر بأسى، وانزلق بصمت إلى مكانه في الغرفة!

ساورته الشكوك تلك اللحظة، هل يدخل الشيخ والعصا بيده؟ هل مرض؟ هل يضرب الأولاد هذا اليوم؟ إنه لا يعرف. لا يستطيع أن يتصور شيئاً محدداً، وكلما دخل ولد جديد وانزلق مثل سمكة إلى مكانه صامتاً، يشعر أن الحزن يتكاثف حول قلبه. وكلما امتلأت الفجوات الصغيرة التي تحيط به يحس أن الحصار حوله يضيق!

أغمض عينيه، حاول أن يستعيد الصور التي حلم بها، لكن شعر بالخوف، ارتجف، وعندما سمع صوت العريف ينادي باسمه أصابه فزع ظاهر. ارتجف كل شيء فيه. تصور أن

نهايته اقتربت، وعندما رد يقول: حاضر، انتابه شيء غريب، كان صوته يشبه تحطم الزجاج، ويشبه سقوط شيء ثقيل، أمال رأسه قليلاً ليسمع كيف يرد الأولاد عندما ينادي عليهم العريف!

الشيخ زكي يدفع رجله اليمنى، ثم يدفع رجله اليسرى، يتقدّمه كرشه. كانت عصاه في يده مثل رأس الحية، ولما دخل بجسده كله، بدا وجهه أحمر محتقناً، وطربوشه يميل قليلاً إلى الوراء. أما عيناه فتنظران بغضب.

هل هي عصا الأمس؟ هل هي عصا جديدة؟ إن أخته على حق، فلدى الشيخ مئات من العصي، لم يعد يتذكر إن كانت العصا نفسها أم غيرها!

الشيخ ينظر إلى الأولاد نظرة تقطر غضباً، أما حركاته فقد كانت تمتلئ غضباً واضطراباً، وشيئاً فشيئاً يتحرك. كانت الحركات بطيئة وواثقة، وعيونه مفتوحة بسخرية، وتنزلق منها نظرات تخض القلب والدم معاً!

لم يتجه إلى الدكة، وقف وسط الغرفة، هز رأسه بهدوء قاس، خرجت كلماته:

- الكلاب الذين وقفوا عند اليماني، ليأتوا إلى هنا، أنا أعرفهم واحداً واحداً، الذي يخرج لوحده له نصيب، أما الذي لا يخرج... فسوف يخرج غصباً عنه، وله نصيب!

ومادت الأرض، انقلبت، اهتزت كل ذرة فيها.

هل توقفت مع الأولاد؟ هل أخرج الآن ليضربني الشيخ مثلما يضرب حماراً؟

وفكر: لم تكن بي رغبة للوقوف، ولكني توقفت. لا أدري إن وقفت أو لم أقف. لا أحتمل ضربات هذا الكافر. إن الشيخ زكي هو الكافر، أما اليماني فسوف يذهب إلى الجنة دون شك. إنه لا يضرب أحداً. وعندما يتلقى ضربات الناس يقول لهم: الله يسامحكم. لا يمكن أن يضربني الشيخ. أنا لم أقف، أنا لم أرد أن أقف، أنا لم أقف، أنا وقفت مع إخوتي، لم أتوقف من أجل اليماني، لا يهمني اليماني. لم أتوقف من أجله، سوف أصرخ في وجه الشيخ: لم أقف. . . لم أقف.

لا يمكن أن تكون الأمور هكذا، إذا ضربني كسرت عصاه، لن أسمح له أن يضربني، إخوتي لم يقفوا.

وشعرت بحقد مفاجئ على كل شيء: على أبي والشيخ واليماني. شعرت بحقد على إخوتي، لماذا وقفوا ما داموا يعرفون أن الوقوف يعني هذه النظرات التي تنصب من عيني الشيخ مثل الجحيم؟

وقرر نهائياً، قال لنفسه: لن أقف والسلام!

مرت في رأسه صور متضاربة، والشيخ ما يزال ينظر إلى الأولاد بصبر واثق، لم يخرج ماجد وسامي، خرج ثلاثة أولاد صغار، كانت عيونهم تمتلئ رعباً، شفاههم صفراء، ويلتفتون مثل قطط مجنونة.

وفي الصمت الرصاصي سمع صوت الشيخ يقول:

- فرصة ثانية... الذي وقف عند اليماني يخرج إلى هنا. سوف أعدّ إلى الثلاثة وبعدها سنرى، وبدأ يعد...

- واحد... اثنين... ثلاثة.

وخرج طفل رابع.

* * *

10

لم يكد الشيخ ينتهي من العد حتى التقت نظراتنا، لم أكن لحظتها أريد أن أنظر إليه، ولكن الآلام التي أصابت يدي سرت إلى جسدي كله. شعرت بما يشبه الدبابيس الساخنة تنغرز في عيني، ثم تنتقل من عيني إلى رقبتي، إلى ظهري، إلى ساقيّ. كدت أصرخ من الألم. رفعت رأسي قليلاً أريد ذرة هواء لكي لا أموت... في تلك اللحظة التقت نظراتنا!

ارتعشت وأنا أرفع رأسي، ارتعشت أكثر عندما رآني الشيخ. تمنيت لو أن أظافري طويلة حادة، لو تتحول إلى أمواس، إلى مسامير وتنشب في ظهري. لو كنت قريباً من الحائط في تلك اللحظة لاستطعت أن أحكّ ظهري مثلما تفعل الحمير، ولكن نظراته لا تترك طريقاً للتفكير، إنها تنصب عليّ، تطوقني، لم تعد عيناه ترى غيري، كأن قصبة ممدودة بيننا وينظر إليّ من خلالها!

لماذا كان ينظر إليّ وحدي؟ أين هم الأولاد الآخرون؟ إخوتي؟ إنهم لم يتوقفوا. لم يروا اليماني أبداً، وأنا لم أرَ

اليماني في حياتي كلها. لو رأيته الآن لما عرفته. ولكن لماذا ينظر الشيخ إليّ هكذا؟ إنه لا يتكلم، عيناه وحدهما تقولان كل شيء، تتكلمان بسخرية موجعة.

آه ما أبشع هذه الابتسامة الصغيرة التي ترتسم على طرف فمه، هل يسخر مني؟ هل يريدني أن أخرج وأقف إلى جانب الأولاد المذنبين؟ ولكني لم أره، أنا لا أعرف اليماني. لم أقف لحظة واحدة. إنهم يكذبون، يكذبون. لم أرَ شيئاً، ماذا يريدون مني؟ لن أقف، لن أقف مهما حصل!

تقدم الشيخ خطوة، أحسست أنه أصبح فوق رأسي، سينتزعني في هذه اللحظة من شعري،من أذني، سيهجم عليّ ويدوسني برجليه. سأقول له إني لم أتوقف، ولكن لن يسمع صوتي، سيكون صوته عالياً مدوياً وهو يضربني. أنا لم أقف. لا أعرف من الذي وقف. لم أرَ أحداً، هل توقف إخوتي؟ هل توقف الأولاد؟ أنا لا أتذكر شيئاً!

التفت الشيخ نحو اليسار ونادى عريف الصف المتقدم. كان صوته وهو يناديه، يشبه سقوط الحجارة. كان حاداً، ثابتاً:

- خلف، حضّر الفلقة.

- والتفت إلى الأولاد، نظر في وجوههم بعيون نصف مغمضة، ثم صرخ:

- خنازير، كلاب سائبة، دواب، سأعلمكم الصدق، لقد قلت لكم مائة مرة أن الصدق ينجي ولكن. . .

وهز رأسه ثم أضاف: لم تعد النصيحة الآن تساوي باره، سنرى كيف يمكن أن تتعلموا ياخنازير. إن الضرب يؤذيني، يؤلم يدي. أنا لا أريد أن أضرب، لكن هناك أناساً مثل الحمير لا يتعلمون إلا بالضرب!

قال الكلمات الأخيرة وتظاهر أن التعب قد نال منه، فبدا مشمئزاً، وفجأة التفت إلى عريف الصف الثاني وقال بلهجة آمرة نزقة:

- مصطفى قم وامسك معه الفلقة!

وقام مصطفى بسرعة ثعلب ومكره، يريد أن يحمي نفسه من غضب الشيخ، وبعد أن وقف مقابل خلف وقريباً منه التفت الشيخ إلى الأربعة المذنبين وسألهم:

- من منكم يريد ألا تنكسر رجلاه؟ ولم ينتظر الإجابة. أضاف: من يتكلم الصدق يرتاح ويريح. الآن قولوا... من كان معكم؟ من يتكلم الصدق ينزل عنه نصف العقاب!

وصمت الأولاد، كانت نظراتهم زائغة مرعوبة، كانوا بين لحظة وأخرى ينظرون إلى الشيخ بمسكنة وتوسل، لكن الصمت كان مديداً ثقيلاً مثل غيمة من الحجر. ظل الشيخ ينظر ويهز رأسه. وبنفاد صبر قال:

- إذا لم تتكلموا بدل المائة عصا مائتين!

تطلعوا إلى الشيخ، تطلعوا إلى بعضهم، وساد الصمت مرة أخرى، كان الصمت عذاباً، حبلاً مشدوداً.

تقدم الشيخ بهدوء مطمئن خطوة إلى الأمام. إن مشيته لم تتغير. اقترب من الولد الأول، نظر إليه بطرف عينه، وفي لحظة شعرت أن كل شيء ينهار، كل شيء، تماماً كل شيء. إذ ما كاد يقترب تلك الخطوة اللعينة ويصبح الولد قريباً منه، ودون أن ينظر إليه أو يسأله، هوى على وجهه براحة يده. سقطت اليد ثقيلة مدوية على الخد الصغير. كان صوتها مثل ارتطام باب مفتوح تضربه ريح مفاجئة، مثل سقوط صفيحة فارغة، مثل الموت. وقبل أن ينتهي رنينها سمع صوت الشيخ من جديد:

- وتسكت يا أبا خنانة، وتوقف لحظة ثم تابع: أتعرف نجوم الظهر؟ الآن ستراها. أنت لا تعرف الشيخ زكي. وأنت... وخطا خطوة ثم بحقد يائس أمسك بأذن الولد الثاني. وسمعنا صوت الصغير. كان صوته طويلاً متألماً كأنه مواء قط. لم يكن يهم الشيخ في تلك اللحظة أن يتكلم الأولاد. إن ذلك سيتم دون أدنى شك، فصمتهم لن يطول، ولكن بهذه الطريقة سيتكلمون بصوت واضح، سيقولون كل شيء.

واستدار استدارة صغيرة، كان يبدو واثقاً ممتلئاً رضىً، ولكن الغضب لم يزايله. وما كاد يلتفت من جديد إلى الأولاد الأربعة حتى شهدنا منظراً غريباً.

كان عوني يقف بعيداً. إلى جانب الحائط، لكن ما كاد يرى الشيخ يستدير حتى اعتراه رعب بدا واضحاً في عينيه. وفي حركة يديه. حاول أن يدير وجهه نحو الحائط، لكنه فجأة عدل، ثم قرفص ويداه بين ساقيه وأخذ يتحرك باضطراب

وخوف.. وبعد قليل رأينا خطاً أصفر ينساب على رجليه أولاً، ثم يمتد حتى يقترب من مكان الشيخ.

وقفز الشيخ يبتعد، قفز كأن حية قرصته. وتضاعف رعب الصغير واختلط بخجله!

وبقرف ظاهر أقرب إلى الألم، رفع الشيخ شفته السفلى. ونظر إلى عوني نظرة مدمرة؛ وبعد فترة صمت بدت لي الأطول في حياتي سمعت صوته يهدر:

- داهية تسمّك يا أبا ظهر محلول. كذّاب وشخاخ.. ها؟ وصرخ بغضب مجنون: اطلع، اطلع. تطلع روحك. الله يقصف عمرك. الله يغورك!

ظل الطفل في مكانه، وقد استبد به الارتباك، فهو لا يعرف كيف يتصرف. هل يبقى؟ هل يخرج؟ زاد هذا في ارتباكه وأغضب الشيخ أكثر. فقال بصوت مثل الرعد:

- تحرك يا خنزير. كيس خيش وامسح..

كان الغضب قد بلغ أقصى درجاته. سادت حالة من التوتر امتدت إلى الجميع، حتى الشيخ نفسه لا يعرف كيف يواجه مشكلة لم يفكر فيها ولم تخطر له ببال.

أما الأولاد فقد نظروا إلى الشيخ بخوف يمازجه الحقد، ونظروا إلى الولد وبركة البول نظرة إشفاق تختلط بالسخرية.

وخرج الصغير مثل قط أفلت من أطفال قساة، كانت رجلاه مبلولتين وسرواله رطباً، وقد أحس بالبرد والإهانة. وبدت في

وجهه آثار الكراهية والاعتذار والخوف. خرج لا يعرف إلى أين يذهب وماذا يفعل، إنه لا يرى كيس الخيش، ولا يعرف أين يجده.

وبغضب صرخ الشيخ في الأولاد الثلاثة، طلب إليهم أن يقتربوا من الدكة، بعيداً عن بركة البول، طلب منهم ذلك بغضب مسموم، ثم عاد وطلب من واحدٍ أن يأتي بكيس الخيش، لأن الخنزير لم يجده.

وما كاد ينتهي هذا المشهد الذي بدا غريباً وموجعاً ومخيفاً، حتى بدأ الشيخ من جديد، قال للصغير القريب منه:

- هل تقول من كان واقفاً عند اليماني؟

ونظر إليه الصغير بتوسل، كان يرتعد وقد اصفرّ وجهه، وبلهجة لم تكن واضحة قال:

- كان الواقفون كثيرين... لا أعرفهم!

- لا تعرفهم: وابتسم الشيخ ابتسامة ساخرة، انفرجت شفتاه فقط، ثم تابع: انظر إلى الوجوه، اعرفهم بوجوههم!

ونظر الصغير. كانت الوجوه متشابهة. واحدة، لا ملامح لها؛ إنه لا يتذكر. لا يعرف. رفع عينين مذعورتين وقال:

- لا أعرف!

- كلكم خنازير.. وأضاف موجهاً الكلام للصغير: لكن ستعرف بعد قليل. وأنت، أتعرف أو لا تعرف؟

قال موجهاً كلامه للولد الثاني. وبرعب أراد أن يعقد صفقة

مع الشيخ. قال له بلهجة من يريد أن يتخلص من العقاب:

- إذا قلت هل تضربني؟

وعاجله الشيخ يريد أن يتم الصفقة، ولكن لا يريد أن يتعهد بمقابل كبير:

- احك، داهية تسمّك. وصمت قليلاً ثم أضاف: إذا حكيت الصدق غيرك ياكل نصيبك!

- كنت ماشياً بالشارع. رأيت الناس حول اليماني. تطلعت إليه مرة واحدة. لم أتوقف، كان هناك أناس كثيرون. أناس لا أعرفهم. وتباطأ قليلاً، أو هكذا بدا للشيخ، فاقترب منه، جفل الصغير وتراجع. رفع عصاه وهزها في الهواء، وقال:

- لا طويلة ولا قصيرة.. من رأيت؟

- سيدي.. كان هناك كثيرون. أما أنا لم أتطلع إليه إلا مرة واحدة. وعندما تحرك الشيخ، ارتج الصغير، وعاد يضيف: سوف أحكي كل شيء.. لقد رأيت سامي.

وتطلع الشيخ إلى سامي، وابتسم ابتسامة انتصار. لم يتكلم كلمة واحدة، رفع إصبع يده اليسرى وأشار إليه أن يخرج. وعندما خرج كان شاحباً، يرتجف، وتعثر أكثر من مرة قبل أن يصل قريباً من الدكة.

وعاد الشيخ يسأل الصغير:

- من غير سامي؟

- لم أرَ إلا سامي!

- قلت إنك رأيت أناساً كثيرين!

- رأيت سامي فقط.

- بدأت تكذب.. إذا قلت الصدق لا أضربك!

- وحق الله. وصلاة النبي لم أرَ إلا سامي.

تقدم منه الشيخ وأمسك بكتفه. وهزه بحقد وقال:

- أتحلف بالله كذباً. يا مشروم الشفة!

- والله والله ماحكيت إلا الصدق!

- اخرس. سوف نرى. سأجعلك تتكلم مثل هدهد سليمان.. قف هذه الناحية

والتفت الشيخ إلى سامي. قال له بسخرية:

- لماذا لم تخرج منذ البداية؟ وصمت قليلاً وهو ينظر إليه بحقد. ثم تابع: جلدك مثل التمساح، تحب الضرب، أليس كذلك؟

لم يجب سامي ولم ينظر إليه، وهذا أغضب الشيخ أكثر. قال له بتحدٍّ:

- يا أزعر، يا فسفسة. أنت خنزير أكثر من كل الأولاد. أنا أعرفك، لكن ستتكلم!

وظل سامي صامتاً. رفع نظره لحظة للشيخ، يريد أن يقرأ في وجهه ما ينوي أن يفعله. وصمت. وعاد الشيخ يسأله:

- أجب يا خنزير، يا أعمى القلب، هل كان معك إخوتك؟

ولم يجب. كنت أرى طرف وجهه وهو يقف بعيداً عن الشيخ خطوتين. كانت يداه متصلبتين ووجهه غاضباً وعلامات الخوف تختلط بعناد ظاهر. وعندما طال صمته استفز الشيخ، فتقدم منه خطوة وسأله:

- هل أتيت إلى الكتّاب وحدك أم مع إخوتك؟

وصفعه على وجهه بغضب. شعرت أن وجهه يلتهب. شعرت بالألم يسري في كل خلية من جسمي، وما كاد رنين الصفعة الأولى يتلاشى حتى صفعه مرة أخرى وهو يقول:

- سوف نرى أين تقودك يباسة رأسك!

في هذه اللحظة وقف ماجد. لم يره الشيخ حين وقف، لكن التفات الأولاد إليه، وما رافق ذلك من حركة نبهت الشيخ، فالتفت. كان ماجد يقف شامخاً. عيناه قاسيتان وشفتاه مضمومتان بحقد. وما كاد يرى الشيخ حتى قال له: أنا كنت معه!

- وبسخرية مريرة أقسى من كل الصفعات، سمعت الشيخ يقول:

- تفضل إلى هنا. شرّف!

وخرج ماجد ليقف مع الأولاد. أما الشيخ فقد ابتسم، ونظر إليّ وهو يرفع حاجبيه بسخرية ويمط شفته السفلى، ثم جاءت كلماته مثل سكين حادة تغوص في لحمي:

- والابن الثالث للحاج حسيب؟ وغيّر لهجته، صارت

أقرب إلى الحقد. وتابع: حرام الخبز فيكم يا خنازير. الحاج يشقى ويتعب وأنتم تتسكعون في الشوارع مع السكارى. ولمن، وابتسم، ستأكلون وتفرقون. لن أتكلم معكم. العصا وحدها تتكلم. مسكين الحاج، يتصور أن عنده رجالاً، ولا يعرف أن الكلاب أفضل من هؤلاء الأولاد!

وأخذ نفساً عميقاً، وخطا باتجاه إخوتي خطوة. ثم توقف والتفت. كان يتحدث إليّ هذه المرة:

- لم تعد عيناي تريان شيئاً. بدت الدنيا قاتمة، كتلة سوداء. شعرت بأنفاسي تتلاحق. وقلبي يقفز من صدري. حاولت أن أفكر، لكن لم أستطع. ظللت في مكاني كأني لم أسمع. نظر إليّ الشيخ وقال بلهجة آمرة:

- علموك بباسة الرأس..ها؟ سوف نرى من يعلّم أحسن، الشيخ زكي أم هؤلاء الخنازير. وأشار إلى إخوتي. ثم صرخ: تعال..

تحولت الغرفة في تلك اللحظة إلى سجن، إلى قفص أسود، لدرجة أني لم أعد أحتمل. شعرت أن كل شيء يضغط عليّ، يطبق على صدري. أما عيون الأطفال فقد أصبحت مثل مسلات تنغرز في جسدي. وضعت. لم أعد أعرف ماذا أفعل! هل أنضم إلى إخوتي؟ هل أهرب؟ هل أصرخ؟

كانت أفكاري مضطربة وقلبي يرتجف، وفجأة وجدت نفسي أقف دون أن أفكر، وقفت ثم صرخت:

- لن تضربني، أبوك لن يضربني. أنا لم أقف. سامي لم يقف، لم يقف أحد، هذا كذاب نحن لم نر اليماني، لن تضربني!

ولم يمهلني الشيخ، سمعت صوته يندلق عليّ مثل الرصاص:

- اخرس يا كلب، يا جرو أعور، سأدق عظامك، سأربيك إذا كان أهلك قد أساءوا تربيتك. نعم سوف أربيك... تعال، تعال!

وتقدم نحوي خطوتين.

وقفت، كانت قبضتي تمسك بيت الجزو بشدة، وفجأة وجدت نفسي أصرخ:

- لن تضربني، لو متّ لن تضربني، رأيت اليماني، اليماني أحسن منك ومن الشيخ صالح. إذا كنت رجلاً فتش عن رجل مثلك تضربه، تشاطر على الصغار؟ تشاطر على ابنك!

اندفعت الكلمات من حلقي متداخلة مضطربة، ومع الكلمات الأخيرة رأيت الشيخ مثل الثور الهائج. كان وجهه أحمر، والزبد يتطاير من فمه، وكلماته تندفع مثل النار. لم أعد أتذكر شيئاً من شتائمه، ولكن فجأة وجدت نفسي على الأرض، والشرر يتطاير من عيني. كان شرراً حقيقياً!

بعد ذلك انتهى كل شيء، ولم تعد ذاكرتي تستطيع ترتيب الحوادث!

يقول سامي إنني ماكدت أقوم من سقطتي حتى انتابتني موجة من الصراخ والبكاء. كنت أشتم. كنت أضرب الشيخ. كنت أقفز إلى وجهه أريد أن أنشب أظافري في عينيه، وهو يضربني. كان يضربني، ثم أراد أن يخلص مني، وكلما ضربني يزداد صراخي وتزداد شتائمي!

وتمتد يدي الآن إلى خدي، إلى جنبي فأشعر بالألم، وأنظر إلى العلامات الباقية فأرى بقعاً زرقاء على يدي، وأحس آثار خدش على رقبتي وخدي. لا أعرف كيف تعاقبت الحوادث... أتذكر أن صراخي ملأ الدنيا، وأتذكر أن ضرباته كانت تنهال عليّ من كل جانب. لم أكن أحس بأي ألم. كنت أقوم بعد كل سقطة، وأخيراً رأيت نفسي قريباً من الباب. وقد اصطدمتْ كتفي بالحائط... وفي لحظة واحدة اجتزت الباب والفسحة مثل الريح وهربت.

اجتزت الزقاق، فالشارع الرئيسي وأنا أركض، تلفتُّ ورائي مرات كثيرة، وعندما تأكدت أن لا أحد يطاردني بدأت أفكر في ما حدث.

لماذا لم أخرج من البداية؟ لماذا لم أعترف للشيخ؟

امتدت يدي دون رغبة إلى وجهي، تحسست الجروح. أشعر الآن بألم حاد. الألم في كل وجهي، في رقبتي.

ماذا فعلت حتى يضربني كل هذا الضرب؟ نعم رأيت اليماني، ما الخطأ في ذلك؟

وحاولت من جديد أن أفكر في الأمور. كيف حدثت، لكن فكرة البكاء كانت تطغى عليّ. شعرت أني حزين، وحيد، لا أحد معي. فكرت أن أذهب إلى البيت فوراً، لترى أمي آثار الضرب، ثم تركت الفكرة. إن أمي ستبكي، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً آخر. يجب أن أذهب إلى الدكان، سوف يرى أبي البقع الزرقاء والدماء. عندما يراني هكذا سيأتي ليضرب الشيخ، يشتمه. ولكن من الذي حرضه على ضربي؟ ومع ذلك يجب أن يرى، أبي لم يقل له أن يضربني هكذا. ولن يترك هذا الخنزير ليقتل إخوتي. لن يسكت.

وتحسست يدي ووجهي. لكن أبي سيسأل: لماذا ضربك الشيخ؟ ماذا أقول له؟

ومرت في رأسه صورة أمه وهي تنظر إلى آثار الضرب والجروح، وتصور سامي يصرخ ويستغيث، لا أحد يشفع له. ستقول أمي... لا يمكن يا حاج أن نسكت، أنظر إلى الجروح. أنظر إلى هذه البقع الزرقاء، لو تركنا الأمر للشيخ ليفعل ما يشاء، فإن الأولاد سيموتون. نعم سيموتون.

وفكر بالذهاب إلى بيت خاله، إن خاله الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يفعل شيئاً. لكن أين هو الآن؟ إنه في الدكان، ولن يعود قبل الغروب... أما امرأة خاله فلديها الكلمات جاهزة ستقول له: عصا الشيخ من الجنة.

أين يذهب؟ لقد تخلى عنه الجميع. لم تعد تربطه بأحد أية صلة. وفكر في الموت. قال لنفسه: إن الموتى لا يضربون، ثم

تذكر ناكر ونكير. . . وشعر بالقرف، بالخوف، فبصق!

فكر في أم النذور، وانتابه الحزن، أين خرقه وماذا فعلت؟ لقد ربط الخرق بإحكام، ثم ألقى النقود. . . وأخيراً لا شيء! لماذا لم يستجب له أبو الشيوخ كما تسميه أمه؟ هل أخطأ عندما دعا؟ وتساءل هل أغمض عينيه؟ ولم يعد يحتمل شيئاً.

لن أذهب إلى أي بيت. سأهيم في الشوارع، في الشوارع أستطيع أن أتخلص من أبي وأمي. من أم النذور القبيحة الجرباء، حتى الشيخ مجيب لم أعد أحبه. لكن هل رأيت اليماني؟ هل توقفت؟ أنا لم أضربه، لم أفعل شيئاً سوى أني نظرت إليه وحزنت. لم أفعل شيئاً آخر.

حاول أن يفسر موقف أبيه والشيخ من اليماني. يقولون إنه شرير، ويسكر ويخمر، لكن اليماني لم يفعل شيئاً. إنه مريض، وإلا لماذا يمشي هكذا؟ لماذا يضربه الناس ويسخرون منه؟ وتصور السكر والشر مرضاً. قال لنفسه: لماذا لا يضع اليماني خرقة على أم النذور؟ إنه مريض، ويجب أن يضع خرقة ليشفى! لقد قالت أمي إن عشرات الناس شفاهم الشيخ مجيب، كان مرضهم ثقيلاً، ومع ذلك فإن إرادة الله وبركات الشيخ أنقذتهم!

وتمنى لو يرى اليماني، لو رآه لقال له أن يضع خرقة على أم النذور، وإذا لم يستطع أن يتسلق الشجرة، فسوف يساعده. سيعلق له الخرقة.

وفكر، ثم قال لنفسه: لا حاجة لأن أراه، سأضع له خرقة دون أن أقول له، وإذا شفي فلن يستطيع أحد أن يضحك عليه أو

يضربه. والشيخ زكي.. لن يستطيع أن يضرب أحداً إذا وقف ونظر إلى اليماني. وأحسّ بألم شديد في خده. إن الألم الآن أكثر من قبل. وشعر بحقد تجاه الشيخ، وبصق.

والشيخ الكبير... أين هو هذا الشيخ الذي يتحدث عنه الناس كل يوم؟ هل استجاب لأحد... أين هم الناس الذين استجاب لهم؟

وصمم ألاّ يضع خرقة جديدة قبل أن يثبت الشيخ مجيب أنه قادر... وعاد يتساءل: هل كان الشيخ مجيب نائماً عندما علقت الخرق ولم يسمعني؟ هل نسي؟

وعاد يفكر: إذا رأيت اليماني فلن أقول له أي شيء. سوف أتركه. ماذا لو علقّ خرقة ولم يستجب له الشيخ؟ سيقول لي أنت تكذب. أنت تفعل بي مثلما يفعل سائر الناس... لا... سأتركه، لن أقول له أية كلمة... ولن أشترك مع الناس في ضربه، لكن إذا رأيته سأقف. سأقف مهما فعل الشيخ زكي، وهل أعترف له أني وقفت؟

لم يعد راغباً في شيء، بدت له الدنيا مثل ذبابة. بصق أكثر من مرة، وخطر له أن يغمض عينيه ويمشي، ليتركه الناس يفعل ما يريد.. وسأل نفسه: كم خطوة أستطيع أن أمشي هذه المرة وأنا مغمض العينين؟ لقد مشى مرات كثيرة، وفي كل مرة يحاول أن يزيد عدد الخطوات، لم يصطدم بشيء أكثر الأحيان، لكن تذكر أنه اصطدم بالجدار قبل يومين. قال: كان خطئي، لو فكرت أكثر، لو انتبهت لما وقع ذلك!

لو فتحت عيني قبل أن أبدأ المشي وتصورت المكان بدقة لما اصطدمت!

كان يجب أن يمشي مغمض العينين. كان يحاول أن يحسب الأمور بدقة: خمس خطوات ثم يميل نحو اليسار، ثلاث خطوات، وعتبة بيت. كان يحاول أن يمشي وسط الشارع ليتجنب الجدران وعتبات البيوت! وفي الليل كان يمشي... نعم كانت في الليل خطواته بطيئة، ومع ذلك يستطيع أن يمشي!

حتى تلك اللحظة لم يكن ينظر حواليه. كان يفكر ويتيه في أفكاره، ولما انتبه وجد نفسه وقد تجاوز بيتهم باتجاه أم النذور والنهر. كانت أشجار الدلب تلوح له كبيرة وعليها بقايا أوراق خضراء وصفراء وتظلل كل شيء. شعر نحوها بحب جامح. قال لنفسه: الشجرة الكبيرة، الوسطى، هي التي يجب أن تكون أم النذور، أمّا هذه القصيرة القذرة فإنها لا تصلح لشيء! وبصق.

كان الظهر ما يزال بعيداً. الشمس حارة تملأ صفحة النهر. بعد أن اجتاز أشجار الدلب، رأى رجلين مسنين يجلسان تحت الشجرة القريبة من التكية. ورأى ثلاثة أطفال يسبحون في النهر، كانوا يسبحون وهم عراة تماماً. نظر إليهم بسرعة وشعر بالخجل! أما في الطاحونة فقد رأى أكياس الطحين وحمارين ورجالاً ينامون تحت أشجار الجوز.

ماذا يفعل الآن؟ تساءل وهو يجلس، على الأرض، قريباً من النهر. كانت عيناه لا تستقران على شيء. تنتقلان بين النهر

الذي تخرقه ضربات الأولاد وصرخاتهم في المياه الضحلة، وبين أشجار الدلب والطاحونة. وتوقفت نظراته على أم النذور. بدت له قبيحة لدرجة شعر أنه يكرهها. قال لنفسه: هذه ليست شجرة. إنها بقايا خرق قذرة ولا شيء غير ذلك. وسأل نفسه بلهجة ساخرة: هل كانت هذه المزبلة شجرة في يوم من الأيام؟ أين هي الأوراق الخضراء؟ أين الثمار التي تتحدث عنها أمه؟

ونظر فوقه. رأى أوراق أشجار الدلب خضراء وصفراء. رآها تتنوع وتتداخل لدرجة أن رغبة جامحة بدأت تنغل في صدره.. هل أستطيع أن أصعد وأجلس في أعلى مكان؟ لو صعدت فسوف أرى كل شيء: البيوت البعيدة، النهر عندما يتلوى ويصل الجسر. نعم أستطيع أن أرى أي شيء.. ولن يراني أحد!

وتصور أمه وإخوته وقد جاءوا يفتشون عنه. سيراهم من مسافات بعيدة قبل أن يصلوا.. سيراهم ويبقى صامتاً، فإذا أصبحوا تحت الشجرة تماماً سوف يسمع أصواتهم، وربما رأى أمه تبكي، وقد تطلب من الشيخ مجيب أن يعيده إليها. لكنه لن يكشف نفسه، حتى إذا وصل بهم اليأس درجة سينادي بأعلى صوته. انظروا أنا هنا، وينظرون حولهم، لقد سمعوا صوته، لكن لا يعرفون أين هو، وعندما تلتقي نظراتهم، سوف يرى ابتساماتهم الحارة. ثم يسمع تحذيرات أمه أثناء نزوله، أما أخوه سامي فسوف يصر على أن يصعد.. وفكر في أبيه، قال لنفسه: أين هو الآن؟ ماذا يفعل عندما يعرف؟

وسقط الحلم عندما رأى أحد الأطفال يقترب منه ويحاول أن يحتمي به من الطفلين الآخرين اللذين يلاحقانه. كانوا عراة تماماً. شعر بالخجل أكثر من قبل. تذكر: لقد نزلت في هذا الماء عدة مرات ولكن كنت أظل لابساً سروالي الداخلي. كان السروال يبتل ويلتصق، مع ذلك أظل فيه.. وعندما أخرج من الماء ألبس القميص ثم أنزع السروال وأجففه! أما هؤلاء الأطفال.. إنهم أصغر مني!

والتصق به الصغير أكثر. والآخران يدوران حوله. كانا يضحكان ويدوران. وقطرات الماء تتساقط على وجهه وفجأة وجد نفسه ينزع ملابسه، ينزعها كلها، ويلقي بنفسه في الماء.

عندما لامس الماء جسده شعر بالراحة. شعر أنه تخلص من كل شيء: الشيخ وأمه وأبيه. وتمنى لو يبقى في الماء. فكر أن يمشي في النهر حتى نهايته. وتراءى له أنه سيرى أشياء كثيرة وجديدة: غابات أشجار خوخ ومشمش وليمون. وسيرى بيوتاً جديدة ووجوهاً جديدة. قال لنفسه بتأكيد: لن أرى هناك الشيخ زكي. لن أراه أبداً. ولن أرى اليماني.

حلم أن الحياة هناك تختلف تماماً. وتساءل: هل يوجد هناك شيوخ؟ لم يعرف كيف يجيب نفسه. خطر له أن الشيوخ في الأماكن الأخرى لا يشبهون الشيخ زكي أو الشيخ صالح. ليس لديهم عصي. ولا يلقون الحجارة فوق صدور الموتى! إنهم أحسن من هؤلاء الشيوخ. وحاول أن يستدرك، قال لنفسه: والشيخ مجيب؛ إن الشيخ مجيب يختلف عن الذين

نعرفهم الآن. لكن لماذا لم يستجب لي؟ لم أطلب منه الكثير. كانت عصا الشيخ زكي كل ما أريد. . . ولم يسمع. وضرب بكفه الماء وبصق. تناثرت قطرات الماء على وجهه وصدره. شعر بالمرارة. نظر إلى جسده بحقد، كان نصفه فوق الماء، رأى علامات على ساعده الأيمن وعلى كتفه. كانت يده اليسرى عند المرفق مجروحة، فبصق، قال في نفسه: الشيخ زكي قاسٍ. . . ومع ذلك لا يضرب ابنه. . . لماذا. أمي تقول: عبد الرزاق مدلل، والشيخ لا يرد له طلباً. . وتساءل: لماذا لا يضرب ابنه إن كان رجلاً؟ وبصق في الماء مرة أخرى.

وفكر لو أصبح شيخاً، أزعجته الفكرة لدرجة أنه لم يحتمل. هز رأسه بقرف. إنه يفضل أي شيء سوى أن يكون شيخاً. ما هو الشيخ. .؟ هكذا سأل نفسه، ومرت صور الموتى والحجارة تتساقط فوقهم. إنه لن يقبل أن يفعل ذلك، حتى لو قطعوا يديه! إن الموتى مثله ومثل باقي الناس، لماذا يؤذونهم؟ لماذا يضربونهم؟

وألقى بنفسه مع التيار. شعر أنه مهموم. كان كل شيء بنظره عديم الجدوى. وعندما وصل قرب التكية، بدت له صفراء متشققة، بليدة، سأل نفسه: وأين هي الشبابيك؟ أين سطح التكية؟ أين الناس الذين يسكنون فيها؟

وشعر أنه لا يحب هذا البناء، يبدو له صلباً جافاً وعديم الجدوى، وإلا لكان له شبابيك عليها زرع، ولرأى بشراً. أما هذا المهبول كما يسميه خاله، فلا أحد يراه، إذا رآه الناس بدا

أصفر الوجه، زائغ النظرات. أما لسانه فإنه لا يتوقف لحظة والمسبحة في يده. وتساءل: هل يفعل الحاج درويش شيئاً مفيداً؟ إنه لا يحبه رغم كل أحاديث أمه. قال لنفسه: أين بركات المهبول؟ من يحس بها؟

وعادت تراوده الرغبة في أن يتسلق الشجرة... لو صعد إلى هناك لرأى المهبول، لرآه وهو يخرج من التكية أو وهو يدخل، ولرأى الناس الذي يربطون الخرق ويلقون النقود. سوف يراهم كلهم. قد لا يسمع أصواتهم. لكن سيراهم بالتأكيد. وتساءل أين الحاج درويش في هذه الساعة؟ ماذا يفعل؟ مد أذنه يتنصت. لم يسمع شيئاً. نظر إلى التكية من جديد. كانت قاسية صلبة، رأى في منتصف الجدار كوة، وما كاد ينظر إليها حتى رأى عيون المهبول تطل عليه تماماً. كانت نظراته حارقة عنيفة. وشعر أنها تسقط عليه مثل الرصاص. وما كادت تلتقي نظراتهما حتى ابتسم المهبول. كانت ابتسامته كريهة، ولم يحتمل أن ينظر إليه. غطس في الماء تماماً وبسرعة، وبدأ يسبح مقاوماً التيار باتجاه أشجار الدلب. وما كاد يصل حتى غادر الماء وهو يحس أن النهر فقد تلك اللذة، بل شعر أن الماء أصبحت له رائحة كريهة وطعماً مراً... وبصق!

* * *

انتهى الظهر وتبعه العصر، وشعر بالجوع وهو يذرع الحقل وراء الطاحون. سأل نفسه مرات كثيرة: أين أذهب؟ ولم يستطع أن يصل إلى جواب!

فكر في العودة إلى البيت. تصور أمه تنتظره. لقد عاد إخوته وقالوا لها كل شيء. وحتى لو لم يقولوا شيئاً فقد رأت بعينيها الدماء والبقع الزرقاء. تصور ماجد وقد ربط رأسه بعصابة بيضاء. أما عينه اليمنى فإنها منتفخة زرقاء. أما سامي! سامي لا يتكلم على جروحه وآلامه مثلما يفعل دائماً، لكن أمه سترى كل شيء. ستبكي. ستقول لأبيه: أقتل نفسي إن ذهب الأولاد إلى الكتّاب بعد اليوم!

فكر أن يذهب إلى الدكان... إذا وصل سيقول له أبوه اذهب وأحضر لنا ماء من النبع، وأثناء غيابه سيسأل الرجال الذين حوله عما يجب أن يفعله، هل يذهب إلى الكتّاب ويضرب الشيخ؟ هل يبصق على وجهه؟

ومن جديد حاول أن يتذكر اليماني... إنه أسمر.. ولا شيء غير ذلك. لم يستطع أن يتذكر. إن اليماني مثل باقي الرجال. لم يره. لم يتوقف. لو وقف لرآه بوضوح. ماذا سيقول أبوه للرجال... وأحس أن خده يؤلمه أكثر من قبل... وقرر ألا يذهب!

نظر حواليه وتمنى لو ينام في الحقل أو في الطاحونة. ولكن من أين يأتي بالفراش؟ ولو يفعل ماذا يقول لأبيه؟ من أين يأكل؟

وتصور فراشه في البيت. تصوره نظيفاً، دافئاً، وأحبّ فراشه. قال: ليس أحلى من فراشي، وفجأة انتفض. قال وهو

يدوس على حجر بدا له مسطحاً: لن أذهب إلى البيت، حتى لو صرت حجراً!

بعد أن فكر طويلاً قرر أن يذهب إلى بيت خاله. سيقول لخاله كل شي. سيقول له: لقد ضربني الشيخ وطردني من الكتّاب. وشعر بالخجل، لقد بدأ يكذب. حتى على خاله بدأ يكذب. فالشيخ لم يطرده. كان قد بدأ يضربه ولم يحتمل فهرب... هكذا حصل الأمر يا خالي!

وتصور خاله يربّت على رأسه وينظر إليه بحنان. وبعد أن يهدأ ويستريح سيأخذه من يده ويذهب إلى بيتهم، وسوف يقول لأبيه: ماذا تفكر يا حاج حسيب... إن الشيخ زكي وحش، لا يعرف الرحمة، إنه ظالم، ثم إن سامح لم يخطئ، وإذا لم تذهب إليه لتضربه فسوف أذهب بنفسي... سوف أذهب بنفسي وأنا أعرف ماذا أفعل!

وتصور خاله يمشي أمام أبيه بخطوة أو خطوتين، وقد قست ملامحه، وبعد أن يدخلا الكتّاب، يهجمان على الشيخ ويضربانه!

* * *

11

كان يفكر وهو يسير وراء الطاحونة، في الحقول التي تمتد بعيداً حتى الأفق. كان يرى أعواد الذرة البيضاء تمتد وتغطي مساحات واسعة. وفي مساكب صغيرة بين الحقول التي تفصلها أشجار الحور، كانت نباتات البرسيم خضراء، خضراء لدرجة أنه لم ير مثل هذه الخضرة، وكانت بعض الأبقار قد ربطت إلى الأشجار بحبال طويلة، وتركت ترعى في هذه المساكب. فكر أن يقطف حزمة من البرسيم ويأكلها، وإذا لم يستطع أن يأكلها فسوف يذوقها! إن بعض الحشائش لذيذة، يمكن أن يأكلها دون تردد: النعناع، البقلة، وشعر أن فمه يمتلئ باللعاب. حاول أن يتذكر حشائش أخرى، لكنه أحس بالمرارة في فمه، وهو يعلك بضع أوراق من البرسيم. قال لنفسه: إن طعمها ليس سيّئاً ولكن لا أحبه.

وتاه في أفكار كثيرة وهو يمشي. توقف عند بقرة مربوطة إلى شجرة لوز، وحولها إلى المدى الذي يسمح الحبل، أصبحت الأرض عارية، وبقايا عروق البرسيم الذابلة على

الأرض. إن لهذا الجو رائحة خاصة، رائحة تشعره باللذة. ليست رائحة البرسيم، وليست رائحة البقر، كما أنها ليست رائحة الأشجار، ولكنها كلها معاً تختلط فتولد رائحة تفجر في النفس رغبات مبهمة! ماذا لو استلقى الآن على الأرض قريباً من شجرة اللوز؟ إنه يحب هذه الرائحة، يعشقها، وتساءل وهو ينظر إلى البقرة: كيف تستطيع أن تأكل البرسيم ولا أستطيع أنا؟

ومرت في ذهنه صورة سامي، إن سامي لا يأكل اللحم، وكل يوم يخلق أكثر من مشكلة بسبب الأكل! أما هو فإنه يأكل أي شيء. وتمنى في تلك اللحظة لو أن بيده رغيفاً ساخناً وأمامه صحناً من المرق.. أي نوع من المرق. وتوقف لحظة عند الفاصولياء، وهو يستعرض أنواع المأكولات التي تحضرها أمه. إن جميع الأنواع لذيذة.، قال لنفسه: لن أكتفِ بصحن واحد، سوف آكل صحنين اثنين!

لم يأكل منذ الصباح.؟ لقد فاته الغداء وبعد قليل سيأتي وقت العشاء. وعندما تذكر أنه لم يأكل البيض واكتفى ببضع حبات من الزيتون شعر أنه يزداد جوعاً، وتأسف. لو أكل لقمة أو لقمتين لما شعر بمثل هذا الجوع.

وفكر أن يذهب سريعاً إلى البيت! وعاد وقال لنفسه: سأذهب إلى بيت خالي!

كانت أشجار الدلب قد أصبحت قريبة، وبعدها التكية، ثم الشارع نفسه يستمر مستقيماً ثم ينعطف. فإذا تجاوز الجسر

ومشى قليلاً يصل إلى زقاق لا يكاد يقطع فيه مائة متر حتى يكون في بيت خاله.

وتجاوز الطاحونة، وما كاد يقترب من أشجار الدلب حتى شعر بانقباض، لأن أم النذور لاحت له، بدت له قصيرة ناتئة في هذا الفضاء الواسع العاري، وكأنها شيء زائد، تماماً مثل الدمل. قال لنفسه: لو كان إلى جانبها أشجار أخرى لظهرت شجرة حقيقية، أما الآن والخرق الملونة البالية تتدلى منها دون نظام فإنها تبدو كريهة سخيفة! وحاول ألا ينظر إليها، مع أن رغبة كبيرة كانت تراوده ليرى الخرق التي وضعها. قرر أن يغمض عينيه قبل أن يصل أم النذور. سيمر بجانبها دون أن ينظر إليها. ألقى نظرة إلى الطريق يريد أن يحفظه، ثم أغمض عينيه وسار.

كان يسمع خطواته. يسمع الصمت حوله يغلف كل شيء، إنه يسير الآن. لم يبق لأم النذور سوى عشر خطوات، ثماني خطوات، خمس خطوات، ثلاث. وراوده الشك. هل يفتح عينيه ليتأكد؟ وقرر أن يمشي بضع خطوات. لقد تعلم هذا الدرس جيداً، إنه لا يخطئ، ربما بقي أكثر من ثلاث خطوات، خمس، إنه يمشي، وفجأة سمع حركة، توقف، انتابه الخوف. فتح عينيه، فتحها جيداً. وما كاد ينظر حتى رأى الحاج درويش يقف على عتبة الباب، قريباً من الجدار.

كان الحاج درويش يبتسم، تنفرج شفتاه عن أسنان وفم كريهين. كانت أسنانه صفراء ناتئة. أما الابتسامة فإنه لم ير

مثلها من قبل. تصور وجه الحاج مثل وجه حمار عندما يرفع شفتيه وينهق. كان خائفاً لدرجة أنه كاد يسقط. وسأل نفسه: هل أقف في مكاني؟ هل أتقدم في نفس الطريق؟ هل أهرب؟

لم يستطع أن يفكر. تاه. اضطرب قلبه. شعر أنه ضعيف لدرجة لا يعرف ماذا يفعل. وجاءه صوت الحاج بطيئاً فجاً:

- تعال.. تعال عندي يا شاطر، سأعطيك حلويات، سأعطيك ما تريد. لدي أشياء كثيرة وحلوة. الحاج درويش في مكانه. ابتسامته ما تزال تندلق، وعيونه تبدو صغيرة. أما يده اليمنى فقد انفرجت أصابعها وأخذت تتحرك وتشير إليه أن يأتي. كان صوته بطيئاً منخفضاً، وبعد كل ابتسامة هزات من الرأس واليد!

شعر بالخوف يملأ قلبه، أصابه رعب قاتل. تصور أن نهايته أصبحت قريبة. دقيقة واحدة ويتقدم منه الحاج ويطبق على رقبته حتى يخنقه. بعد لحظة يموت. انتفض من الخوف، اجتاحته رغبة الحياة. حاول أن يبدو شجاعاً، قال لنفسه بلهجة تحدٍّ وعناد:

- ماذا تريد مني؟

ورد عليه الحاج بنفس الصوت البطيء الهامس:

- تعال يا حبيبي... ألا تريد حلويات!

- لا أريد شيئاً. ومكّن رجليه في الأرض. سيقاوم، ثم عاد وفكر في الهرب. قال لنفسه: الهرب أفضل. سمع صوت الحاج يقول له:

- لا تخف يا حبيبي. تعال وانظر إلى الأشياء الحلوة التي تملأ الغرفة! لن نتأخر، لن يرانا أحد!

ومرت في رأسه أفكار غامضة. من يخاطبه الآن؟ هل هو الحاج درويش صاحب البركات المقدسة؟ هل هو الدودة الصفراء، أم المهبول، كما يسميه خاله؟ إنه لا يرى نوراً في هذا الوجه، كما تقول جارتهم أم محمد. إنه يرى وجهاً قبيحاً ولحية تشبه المكنسة. أما العيون، فإن عيون اليماني لها بريق أنيس ولا تخيف أحداً.

وقرر أن يهرب، يجب أن يغير اتجاهه قليلاً، فينعطف نحو اليمين لكي يبتعد ثم يركض، لن يستطيع أن يلحق به. وإذا أمسك بي؟ هكذا سأل نفسه. قال بتحدٍّ. سأصرخ، سأضربه، سأشد لحيته، لا أريد أن أدخل التكية، لو قتلني لن أدخل!

وفي لحظة وجد نفسه يندفع بأقصى سرعة، ويخلف وراءه كل شيء: أم النذور والمهبول والتكية. ولم يطمئن حتى وصل إلى مدخل الشارع الرئيسي.

خفف من سرعته عندما أحس بالناس حوله، والتفت. كانت أنفاسه تتلاحق، والخوف لا يزال يسيطر عليه، وبحقد طاغ كان يملأ صدره بصق. كان يريد أن تكون بصقته كبيرة قوية حتى تصل البعيد البعيد، حتى تصل إلى جبين الحاج.

وسار باتجاه بيت خاله وهو يرتجف. إنه الآن يفكر في كل شيء، لكن تفكيراً مضطرباً متداخلاً. يفكر في الشيخ زكي، في

الحاج درويش، وأبيه واليماني. ولما وصل تفكيره إلى اليماني تساءل: هل الحاج درويش أحسن منه؟ ابتسم بسخرية دون أن يجيب. وبدت له الأمور معكوسة، خاطئة، لكن لا يدري لماذا!

توقف قبل أن يصل بيت خاله. كان متأكداً أن خاله لم يأت بعد. إذ لم يمض على غياب الشمس سوى القليل. فأنوار البيوت لم تتقد كلها، إذ ما تزال شاحبة، قليلة. وما تزال النسوة في البيوت يجلسن في ظلمة المساء الأولى. وفكر: ماذا تفعل زوجة خالي الآن؟ هل حسن ووليد وجهاد هناك؟ هل لديهم ضيوف؟

وأمه، أين هي الآن؟ قال لنفسه: إذا كانت موجودة الآن فلن أدخل. سأنتظر في الشارع حتى يعود خالي!

وتصور خاله بقامته القصيرة القوية. وتصور يديه مشققتين دائماً من السكين. إن السكين تجرح كل شيء لماذا لا تجرح خالي؟ كذلك قال لنفسه، وعاد يتصور أصابع خاله: لقد اسودت وعلتها طبقة صفراء. إن صنعة خاله أفضل ألف مرة من تجارة أبيه. فخاله يعمل طوال النهار، لا يتوقف. أما أبوه فلا يعمل شيئاً، سوى نقل كرسي القش من مكان لآخر. من داخل الدكان إلى الرصيف، بعد أن يطلب من الأجير رش الماء. كان يجلس هناك ساعات طويلة، يراقب الناس، يرد السلام، ويتحدث مع شريكه أو مع الذين يمرون... أما خاله فليس لديه الوقت لكي يجلس ويسبح، إنه يعمل. قال لنفسه: صنع الأحذية صعب ويحتاج إلى مهارة!

كان الناس يمرون. أطفال ونساء ورجال. ومن مكانه ذاك لم يكن يستطيع أن يسمع أصوات من هم في بيت خاله، تقدم بضع خطوات، لكنه لم يسمع شيئاً. قرر أن يتجاوز الباب كأنه لا يريد أن يتوقف، وعندما يصل بمحاذاته يستطيع أن يسمع الأصوات بوضوح. وبدأ الشك يساوره. قد لا يجد أحداً، تصور أولاد خاله مع إخوته يفتشون عنه! لقد وصل الخبر إلى الجميع والجميع يفتش!

وفي لحظة قرر أن يدق الباب ليتأكد. تقدم بهدوء. دق الباب. شعر بفرح لمّا سمع أصوات أقدام تقترب. وما كاد يرى وجه ابن خاله حتى بدا له وجهاً أنيساً مطمئناً، ولم يلاحظ في الوجه ما يشي بالخطر أو الشك... إنهم لا يعرفون!

هل يتكلم عما حصل له دفعة واحدة، ودون أن يسأله أحد؟ هل يقول لوليد أن يأخذه معه إلى المدرسة؟ هل يظل يتعذب بين أبيه والشيخ... والآن أم النذور والمهبول؟

إنه الآن يتعذب، يشعر بالحيرة والعذاب. وندم أنه جاء إلى بيت خاله.

عندما رأته زوجة خاله استغربت مجيئه ومنظره. حاول أن يخفي يديه والعلامات التي تفضحه... لكن الخدش الذي على خده، كيف يخفيه؟ هل بدا جائعاً حتى اكتشفته زوجة خاله بهذه السرعة؟ إنه جائع لكن يستطيع أن ينتظر. لم يفكر أن يطلب طعاماً...أما زوجة خاله فقد نظرت إليه طويلاً وباستغراب وهو يعب الماء. لقد أخطأ عندما شرب هكذا، لو لم يشرب لما

عرفت شيئاً! أمه تقول الماء يسكت الجوع.. .هو يشرب ليسكت جوعه!

سألته زوجة خاله بلهجة رقيقة محايدة:

- هل أتيت من البيت؟

لا يعرف كيف يجيبها. فوجئ بالسؤال. هل يقول لها إنه لم ير البيت منذ الصباح؟ هل يقول إن الشيخ ضربه فهرب وهام على وجهه منذ الصباح؟ تردد أول الأمر، ثم قال:

- لم أكن في البيت، جئت من السوق.

- هل كنت عند أبيك؟

- لا.

- أين كنت إذن؟

- كنت في السوق!

- وحدك؟

- نعم.

- ماذا كنت تفعل في السوق؟

حتى تلك اللحظة كان يجيب زوجة خاله بهدوء، يريد أن ينهي الحوار معها دون أن يتكلم، وفجأة أحس أن شيئاً في داخله ينفجر. لم يكن يريد أن يكذب. سيقول لها كل شيء، وإذا رأت العلامات في جسده فلن تقف إلى جانب أبيه. قال:

- خالتي... أريد أن أبقى عندكم. لا أريد أن أعود إلى البيت!

وأحست المرأة أن شيئاً خطيراً في قلبه. أرادت أن تطمئن وأن تعرف ما حصل له. قالت:

- بيتنا وبيتكم واحد، يبدو أنك زعلان، من الذي زعلك؟

- لا أحد. أريد فقط أن أبقى عندكم!

- أهلاً وسهلاً.. لكن ماذا حصل؟

- إذا لم تقبلوا سأذهب عند خالتي مريم!

- لا.. نحن نقبل وابتسمت تحاول أن تخفف من غضبه، وبعد فترة قصيرة، سألته: أين سامي هل كان معك؟

- لا.

- طيب.. مع من كنت؟

- وحدي.. وحدي.

نظرت إليه زوجة خاله نظرة طويلة حانية، شعر كأنها تستعطفه، تريده أن يتكلم. كانت تفكر وهي تنظر إليه، وما كاد يميل وجهه وترى الخدين، حتى سألته بفزع:

- من ضربك يا سامح؟ ما هذا؟ واقتربت منه. وضعت إصبعها فوق الجرح تتلمسه بحنان. ولم يعد يحتمل يجب أن يقول لها كل شيء.. وبدون ترتيب اندفع يقول:

- خالتي.. لقد ضربني الشيخ. ضربني على وجهي، على يدي. وبدأ يكشف عن ساعده وكتفه... انظري... انظري هنا. ومد إصبعه إلى كتفه، ثم إلى مرفقه، وأشار إلى جنبه. لم

أفعل شيئاً ومع ذلك ضربني وضرب سامي وماجد. نحن لم نتوقف. رأيناه فقط، ولكن لم نتوقف!

وبدا صوته ضعيفاً متوسلاً، كان يريدها أن توافقه: كل الأولاد توقفوا، لكنه لم يضرب غيرنا، شتم أبي، لقد ضربني بقسوة، لم أقدر أن أحتمل الضربات، فهربت!

عندما وصل إلى هذا الحد. كانت الدموع تترقرق في عينيه، وكان ينظر إلى زوجة خاله بتوسل، وبعد أن استراح قليلاً أضاف:

- إن الشيخ ظالم. يضرب الأولاد بالخيزرانة... لا، لن أذهب إلى الكتّاب أبداً. لو رآني الشيخ مرة أخرى لقتلني... لا أقدر على احتمال ضرباته. والله لم أفعل شيئاً. نحن لم نتوقف!

حاولت أن تهدئ من روعه. أخذته في حجرها وهي تربّت على رأسه وخده، قالت:

- عيب البكاء يا سامح، لقد أصبحت رجلاً، الذين يبكون هم الأطفال الصغار. لم تكن حتى تلك اللحظة تعرف السبب الذي دفع الشيخ لضربه، سألته: قل لي لماذا ضربك؟

- يقول إننا توقفنا عند اليماني وضربناه!

- وهل وقفتم؟ هل ضربتم اليماني؟

- والله. والله لم نتوقف. كان يمر عند الكتّاب عندما مررنا نحن، نظرنا إليه فقط!

وبعد لحظة سمعها تقول له:

- غداً تكبر وتنسى يا سامح!

- ولكن لن أذهب مرة أخرى إلى الكتّاب، لو رآني الشيخ لن يتركني حتى أموت. لقد هربت. وأبي سيضربني. أريد أن أبقى عندكم. أنا لم أفعل شيئاً. اسألي إخوتي، وأضاف بصوت لا يكاد يسمع، كلب!

وتظاهرت زوجة خاله أنها لم تسمع، وعادت تسأله:

- وهل ضرب إخوتك؟

- ضرب سامي على وجهه، وأخرج ماجد ليضربه، ضربهما، وأنا هربت!

- وهل ضرب الأولاد الآخرين؟

- ضرب ولدين. وأراد أن يقول لخالته عن ذاك الولد الذي بال على نفسه، لكن لم ترق له الفكرة، بعد تفكير قال: أراد أن يضرب الآخرين... لقد ضربهم!

- وهل فعلوا شيئاً؟

- لم يفعلوا أي شيء، كل الضرب من أجل اليماني، وبصوت أخفض تابع: الله يلعن اليماني. لم نقترب منه، لم ننظر إليه والشيخ يقول أنتم كذابون. هذا الكذاب شايف نفسه مثل الله. اليماني أحسن منه، لا يعرف إلا أن يضرب ويضرب.

كانت خالته تنظر إليه نظرات حزينة، تريد أن تواسيه، ولكن تريد أن تبقي للشيخ هيبة. بعد فترة صمت طويلة، ويدها

تربّت على شعره، وأفكارها تتيه في أماكن بعيدة، سألته:

- الم تفعل شيئاً آخر يا سامح؟ ألم تعذب الشيخ؟

- بشرفي يا خالتي، والله العظيم ما عملت شيئاً. وسأل نفسه: لماذا كان الشيخ حيواناً هكذا..؟ كل هذا من أجل اليماني...وأي شيء فعلنا؟ واستعاد خطواته كلها، لم يجد شيئاً يمكن أن يعاقب عليه فتملكه الحقد، قال:

- خالتي.. الشيخ كلب، يضرب دون سبب!

- لا، إنه لا يضرب دون سبب.

- ولكن ماذا فعلت حتى يضربني؟ ومد إليها يده مرة أخرى، وقال: انظري، وفي الصباح كانت متورمة، والله لم أفعل شيئاً...لن أذهب مرة أخرى إلى الكتّاب!

- غداً تكبر وتنسى... عصا الشيخ من الجنة! وكادت تضيف عبارات أخرى، ولكنه لم يمهلها.

- إنشاء الله تنكسر عصاه. إنشاء الله يموت. كلب.

- لا.. عيب. ألم تسمع من قال: مَنْ علمني حرفاً كنت له عبداً؟

- إنه لا يعلِّم... لا يعرف إلا الضرب. وبعد فترة صمت أضاف: لو كنت كبيراً، وهز رأسه وصمت من جديد.

احتضنته زوجة خاله... نظرت في عينيه. شعر أنها تحبه، قال لها بلهجة يائسة وحنونة:

- خالتي، لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب، أريد أن أذهب إلى المدرسة!

كانت كلماته مؤثرة وحزينة وتعني أشياء كثيرة وإن لم تقلها تماماً. أما زوجة خاله فكانت تدرك بوضوح أن المدرسة هي المكان المناسب للصغار. قالت ذلك لأمه مائة مرة. لكن أمه لا تسمع. تصر أن يذهب أولادها إلى الكتّاب. ليس هذا رأيها... هكذا يريد الحاج، وتساءلت: كيف يتعلم الأولاد في الكتّاب.. والكتّاب ما هو؟ وترآى لها مكاناً مظلماً وبشعاً. وتصورت الشيخ رجلاً قاسياً يضرب الأولاد، ولا يعلمهم شيئاً. ليس هذا فقط، وإنما يحتفظ بهم أطول فترة ممكنة كي يدفعوا له الخميسية. هكذا كانت تفكر، وتمنت لو يترك الحاج حسيب هذا الطفل يذهب إلى المدرسة، لكن لا تستطيع شيئاً، لا تستطيع حتى أن تقول هذا.

بعد تفكير، وبلهجة مترددة، قالت:

- المدرسة مثل الكتّاب، يا سامح، إذا وافق أبوك يمكن أن تذهب إلى المدرسة. سأقول له. ستذهب أنت ووليد وحسن، وهناك ستتعلم القراءة والكتابة، وتصبح بعد أن تكبر محامياً... سأقول لأبيك.

- لن أذهب مرة أخرى إلى الكتّاب.

وفجأة خطر له أن يسأل زوجة خاله: لماذا أرسل الشيخ زكي ابنه إلى المدرسة؟

لقد سمع بالأمس عمته تقول لأمه هذا الكلام، والآن يريد أن يمتحن زوجة خاله، بعد تفكير طويل سمعها تقول:

- والله يا ابني لا أعرف! ولمح على شفتيها ابتسامة، ولما التقت نظراتهما حاولت أن تنظر إلى مكان آخر وبهدوء واثق قال، وكأنه يخاطب نفسه:

- المدرسة أحسن مائة مرة.

عندما دخل خاله، كانت بقايا دموع في عينيه. وكانت زوجة خاله تربّت على رأسه. هل توقف خاله وسمع ما يدور بينهما أم دخل فجأة؟ لا يدري. لكن ما كاد سامح يرى خاله حتى هجم عليه، ودفن رأسه في صدره.

أحس الرجل أن أمراً كبيراً يعذب الصغير، وإلا لما تصرف بهذا الشكل، رفع رأسه ونظر في عينيه، وكأنه لمح في تلك اللحظة الخدش على خده، وانتشر صمت قاس، ثم سمع صوت خاله يقول:

- أهلاً... أهلاً سامح. وأمسك بكتفه. كان يمنحه كل التأييد، فشعر بثقة تملأ كل خلية فيه. وعاد خاله يسأله: كيف حالك؟ ونظر إليه. كان يريد أن يقرأ كل شيء في هذا الوجه، ولما اطمأن نظر نظرة طويلة متوسلة، ولم يجب. راودته تلك اللحظة أفكار حزينة، لماذا تركوه هكذا؟ لماذا يقفون في وجهه. وفجأة وجد نفسه يبكي. كان بكاءً صامتاً حزيناً. لم يكن بكاء. لم يكن ضعفاً. لقد كان بنظره احتجاجاً على شيء

ما! على الشيخ، على أبيه، على الحاج درويش.. على كل شيء حوله!

ولم يسأله خاله شيئاً. ظل يمسك بكتفه. كانت يداه تروح وتجيء بلا توقف على الكتفين والرقبة وأحسّ سامح أن هاتين اليدين تقولان الكثير، ودون كلمات. وبعد أن مسح بقايا الدموع من عينيه، ساد صمت متوتر. لم يقطعه سوى زوجة خاله، وهي تقول:

- لقد ضربه الشيخ!

- لماذا؟

- يقول الشيخ إنهم وقفوا مع الأولاد الآخرين وضربوا اليماني.

- هل ضربت اليماني؟

- والله.. والله العظيم لم نتوقف. لم نتوقف سوى لحظة واحدة. انا أحب اليماني. أنا لا أضربه!

ورد عليه خاله بلهجة تمتلىء حناناً:

- قل الصحيح وأنا معك:

- والله.. والله لم نضرب اليماني. لم نتوقف. كنا نمر فقط. نظرنا إليه نظرة واحدة.

- من ضرب اليماني؟

- الأولاد لم يضربوه. كان هناك رجل كبير، هو الذي ضحك عليه وضربه.

- وأنتم؟

- لم نضربه. لم نتوقف إلا دقيقة واحدة!

ولمس خاله في وجهه الصدق. نظر إلى زوجته وقال:

- حيوان الشيخ زفت. كيف يضرب الصغار هكذا؟ حتى لو توقفوا، لو ضربوا اليماني. كيف يضربهم بهذا الشكل؟ وغيّر لهجته، كأنه يخاطب نفسه وتابع: أنا أعرف هذا النوع من الناس، يقولون إنهم لا يفعلون شيئاً إلا من أجل رضى الرب، لكنهم لا يرضون إلا أنفسهم، لا يرضون إلا هذه الكروش المليئة بالوخم والطمع!

كانت أصابع خاله السوداء المشققة تمر على الجرح في أعلى الرقبة. كانت الأصابع دافئة حنونة. كانت خشنة لكن لم تكن قاسية!

ونظر إلى زوجة خاله، رأى وجهاً حزيناً مستسلماً، أقرب إلى وجهه، وعندما بدأت تتكلم من جديد قال لنفسه لماذا تختلف عن أمي؟

قالت زوجة خاله:

- الله يصلح الحاج حسيب، لا أعرف لماذا يصرّ على الكتّاب؟

وسحبه خاله وجلسا على أريكة طويلة. أجلسه بجانبه ووجّه الكلام إلى زوجته:

- مائة مرة قلت للحاج إن المدرسة أحسن، ولكن! وبعد

فترة صمت، وبعد أن رأى البقع الزرقاء على يده انفعل فجأة وقال: هذا ليس كتّاباً، إنه مسلخ، والشيخ أولى به أن يصبح جزاراً. الله يكسر يده. إنه حيوان، لكن الحاج هو المسؤول، يجب أن يذهب للشيخ زفت ويضربه، يكسر أسنانه. حرام أن يضرب الأطفال هكذا. الضرب لا يعلّم. هم يتصورون العكس. الكتّاب زريبة، لكن من يسمع؟ قلت لهم ألف مرة اتركوا الشيخ زفت. إن الأولاد هناك لا يتعلمون شيئاً، كلها مساخر وخدمة وزرب!

ما كاد يسمع هذا الكلام حتى شعر بثقة لا حدود لها. كان بإمكانه في تلك اللحظة أن يذهب إلى الشيخ ويبصق في وجهه. قال لنفسه: لن أخاف منه. إنه حيوان، كلب، كيف يضربني بهذا الشكل؟ ماذا فعلت حتى يضربني هكذا؟

وأحسّ أن خاله مثل جبل كبير، كأنه شجرة الدلب الوسطى، قوي، قوي جداً، لا يخاف من أحد، ويحب جميع الناس، حتى اليماني. وتصور أباه رجلاً مسناً تعيساً لا يقوى على رفع يده، ولا يعرف شيئاً. وأحسّ بحقد تجاه أبيه. قال لنفسه: إن أبي هو المسؤول، هو الذي حرضه على ضربي، وإلا لما ضربني. لو كان خالي هو أبي لذهب فوراً إلى الشيخ وكسر له أسنانه... أما أبي فقد سلمني إليه وكلمة كبيرة تملأ حلقه:

اللحم لك والعظام لنا! وقال في نفسه وقد بلغ الحقد حنجرته كأنه الغثيان: لماذا لم يعطه العظم أيضاً؟

ولمّا نظر إلى خاله شعر أنه يحبه كما لا يحب إنساناً. كان يريد أن يرتمي على صدره، أن يقبله. كان يريد أن يقول له: لماذا لا تصير أبي؟ لماذا لا نذهب إلى الشيخ ونَدوس في بطنه؟

* * *

12

شملتنا سكينة ناعمة خلّفت فينا رضى قلّما نحس بمثله. إنه يشبه الراحة التي يحس بها المتعب عندما ينتهي من صعود جبل ويصل إلى شجرة ظليلة فيرتمي تحتها. يصبح للراحة هناك طعم جديد. وللهواء لذة تتسرب إلى الجسد، وكأن الهواء واللذة يكتشفان لأول مرة.

عندما بدأ خالي يغسل يديه ووجهه، خلق هرجاً كبيراً في كل أنحاء البيت، رغم أن ذلك يتكرر كل يوم. إذ ما كاد يسكب الماء على وجهه ويديه حتى صهل مثل حصان، فتناثرت قطرات الماء على شفتيه وهو يزفرها، ثم صهل مرة أخرى، ولكن بطريقة مختلفة، وهز رأسه أفقياً هزات مترنحة، وكفّاه تغرفان كميات كبيرة من الماء يسفحها على وجهه بلذة طفولية مجنونة. بعد ذلك ترك وجهه مبلولاً للحظات، وقطرات الماء تتساقط إلى شفتيه، إلى أذنيه، إلى صدره، فيحس لسقوطها دغدغة تبدو من ابتسامته، ومن انفراج عينيه، وكأنه يريد أن يمتص شيئاً ما!

بعد أن نشف وجهه التفت إلى زوجته وقال:

- اليوم عندنا ضيف، ونظر إليّ، فأحسست كأنه يحتضنني بعينيه. ثم تابع وكأنه يخاطب نفسه: لن أذهب الليلة إلى المقهى.

وبعد فترة صمتٍ نظر إلى زوجته، كأنه يؤنبها. قال:

- أما زلت جالسة؟ ماذا تنتظرين لكي تحضري لي العشاء؟ إني أحس بجوع. الجوع كافر. قال الكلمات الأخيرة بلهجة مختلفة وهو يهز رأسه، كأنه تذكر شيئاً!

نظر خالي حواليه، مرت عيناه على الجدران والسقف، وتوقفتا فترة على النافذة، وكأنه يرى في الظلال نباتات المداد والريحان وهي تتمايل عندما تمرّ فوقها الريح. وسرح في أفكار بعيدة. ولما عاد إلينا صرخ في وجه وليد. كانت صرخة عالية، لكنها ضاحكة:

- يا الله... كيلو خبز تنور. إذا لم يكن مقمراً ترجع مرة، ترجع مائة مرة!

- لكن عندنا خبز، لقد أحضرت الظهر.

- قلت لك إني جائع وأريد خبزاً ساخناً، ألا تفهم؟ تحرك!

وقام وليد برغبة متكاسلة! قال وهو يمد إصبعه في الهواء محذراً:

- اترك الأوراق كما هي... سأرجع بعد دقيقة، وأنا الذي سأكملها!

كانوا أثناء ذلك قد بدأوا يحضرون نماذج ورقية. ضحك حسن وهو يغمز بعينيه، وما كاد يخرج أخوه حتى استمر بالمهمة وكأنه نسي كل شي!

* * *

الظلمة تتكاثف في الخارج، وسامح لا يستطيع أن يندمج في هذا الجو اندماجاً كاملاً. شعر أنه يحب بيت خاله، وتمنى لو كان بيتهم. لكن قلقاً غامضاً كان يتسرب إلى قلبه. كان يفكر، وقد سأل نفسه أكثر من مرة: أين أمي الآن؟ وهل تأتي إلى هنا؟

كان متأكداً أنها ستأتي. إن أموراً أقلّ من ذلك بكثير تجعلها تبكي. تجعلها تدور مثل فأر كما يقول أبوه. ولكن لن تأتي إلى هنا قبل أن تبحث في أماكن أخرى. ستتعب وهي تبحث. وتساءل من جديد وأبي... هل سيأتي؟ ولم يستطع أن يجيب. شعر أنه يكره بيتهم. إنه ليس بيتاً، فهو لا يشعر فيه بالراحة، حتى الغرف لا يتذكرها بوضوح كافٍ، وكأنها ليست جزءاً من البيت.

كانت غرفة الضيوف في بيتهم مغلقة بصورة دائمة، وفي المرات القليلة التي دخل إليها، كان يرى السجادة ملفوفة ومسنودة إلى الجدار، وأغطية بيضاء تغلف المقاعد. أما الرائحة التي تملأها فإنها تخلّف في نفسه مشاعر متناقضة. إنها ليست رائحة النفتلين، ولا رائحة العفونة. إنها رائحة خاصة أقرب ما تكون إلى رائحة الأماكن المهجورة أو المستودعات. وتذكر أباه

وهو يطلب أن تهوَّى الغرفة قبل ساعات من استقبال الضيوف. لقد شارك في عملية التهوية أكثر من مرة، لأنها بدت له طريفة. فمرة لما عاد أبوه، قال إن رائحة الغرفة ما تزال ثقيلة، وبعد تفكير اقترح أن يمسك الأولاد بقطع من القماش ويحركوها حتى تجدد الهواء بسرعة. وقد استعمل هو في هذه العملية سجادة الصلاة، وبين لحظة وأخرى كان يصطدم بإخوته، ثم حولوا العملية إلى لعبة، كانوا يصطدمون ببعض أثناء حركتهم، ثم بدأوا يتضاربون ويتضاحكون، وما إن دخل أبوهم ورآهم هكذا حتى غضب، فانتزع قطعة القماش من سامي وبدأ يُهوّي بها، ويقول: هكذا يجب أن تتم العملية، بدا له أبوه مضحكاً بقامته الطويلة وهو يقوم بهذه الحركات البلهاء!

تمنى لو يبقى في بيت خاله، لكن إذا اضطر أن يعود إلى البيت فماذا سيقول لأبيه؟ وكيف ستنتهي المشكلة؟ وعاد يتصور أخويه: إن سامي متورم الوجه، الكدمات الزرقاء تنتشر في أنحاء عديدة من جسده. أما ماجد؟ ولم يستطع أن يتصوره بدقة. لكن هل ضربه الشيخ؟ إنه أكبر منهم.

ومرة أخرى سأل نفسه: كيف سارت الأمور بعد أن هرب؟ هل ضرب الشيخ الأولاد؟ هل بال أحد على ثيابه؟

وأزعجته الفكرة، أراد أن ينساها بسرعة، وتمنى لو أنها لم تحدث!

كان حسن مستغرقاً بالأوراق، وخاله مضطجعاً وقد أسند رأسه براحة يده وكوعه على الأرض. كان ينظر ويفكر. وعندما

التقت العيون، ظل خاله يحدق في نفس النقطة، هل كان يتأمله، أم يفكر في أمور بعيدة؟ وفجأة انتبه لنفسه، فنظر إلى حسن وقال:

- اخترعتم طيارة؟ قال ذلك بلهجة فيها سخرية، ولم يجب حسن. ظل يقص ويلصق الأوراق، وعاد خاله يسأل مرة ثانية: أرني ما صنعت! لقد مزقت طناً من الورق.

ورد حسن، وكأنه يدافع عن نفسه:

- أنا لم أمزق... دقيقة واحدة وينتهي المركب!

- المركب مرة أخرى. لقد صنعتم هذا المركب مائة مرة، أليس عندكم غيره؟

- ولكنه كبير هذه المرة. وقد صنعنا له قاعدة من الكرتون.

- وأين ستبحر فيه؟ في البحر، سأذهب إلى أمريكا؟

- وليد يقول: يمكن أن نكبره عدة مرات، وبعد ذلك يصبح مركباً حقيقياً!

- وتركبون في بحر النيل؟ وضحك!

- وفكر سامح في البحر، تصوره ماءً كثيراً، نهراً كبيراً. إذا وقف على ضفته ونادى لا يسمعه من كان بالضفة الثانية. إنه أكبر عشر مرات من هذا النهر. وتمنى لو يرى البحر. ثم عاد وتساءل: هل النهر عندما يفيض في الشتاء يصبح بحراً؟ ارتاح لهذه الصورة، ولكن كيف يضعون المركب في المياه الطينية الصفراء... ألا يتسخ؟

وسمع دقاً متواصلاً على الباب، فشعر بالخوف، لقد جاءت نهايته. سوف يدخل أبوه في هذه اللحظة وينتزعه بقوة ويضربه حتى يموت. لن يستطيع أن يدافع عن نفسه، لن يستطيع أن يضربه مثلما ضرب الشيخ. فكر أن يهرب. أن يختبئ، ولكن أين؟ وهل يستطيع أن يهرب من أبيه؟ نظر إلى خاله يريد أن يقرأ في عينيه معونة من أي نوع. قال لنفسه: إن خالي لا يتركني، وفكر، هل يستطيع أحد أن يمنع أبي لو أراد أن يضربني؟

إن خاله يقف إلى جانبه إذا ضربه رجل غريب، أما إذا ضربه أبوه؟ ومرت في رأسه صورة خاله وقد أمسك بأبيه، وضربه على وجهه، على أسنانه، فسال الدم، وانهار أبوه على الأرض. والأولاد والنساء حولهما يبكون ويصرخون بصوت عالٍ، وهو يقف في زاوية يتابع المشهد بخوف يصل إلى درجة الموت... ولا يعرف ماذا يفعل!

دخلت أمه ومعها سامي. كانت شاحبة اللون، متعبة، وما كادت تراه حتى هجمت عليه واحتضنته بقوة وأخذت تبكي بكاء حاراً. كانت دموعها تتساقط غزيرة على وجهها. لم تتكلم. نظرت إليه نظرة أحس أنها تحتضنه تماماً، قربته من صدرها وكأنها تخاف أن يسرقه أحد. تمنى لو كان وحيداً معها في تلك اللحظة. إذن لبكى هو أيضاً، يقبل يديها ووجهها. قال لنفسه: سأذهب حيث تريد!

كان يشعر بحزن يقتلعه من كل أرض، ويضغط على رأسه ورقبته. كان يشعر بغضب على نفسه لأنه جعل أمه تبكي وتحزن

هكذا. إنه يحبها لدرجة لم يتصوّرها. لم يكن يريدها أن تتألم. لكن ماذا يفعل الآن؟ هل يمسح دموعها؟ هل يقول لها أن تتوقف عن البكاء؟ يريد أن يفعل شيئاً، لكنه لا يعرف ماذا يفعل!

وتصور أباه يقف على باب البيت ينتظره. تصوره مع ماجد يفتشان عنه عند خالته مريم، أو في الشوارع، وشعر بالأسف لأن الكراهية التي كان يحسها تجاه أبيه قبل قليل ما تزال تسيطر عليه. إنه يحب أباه، لكن لماذا تصرف بهذا الشكل لكي يكرهه؟ وسقطت دمعة على خده، لم يكن يعرف لماذا يبكي. لم يكن يريد ذلك لكن نظرات أمه الممتلئة بالدمع دفعته إلى البكاء رغماً عنه، فخفض عينيه وأغرق وجهه بكتفها.

أحس بصمت ثقيل يملأ جو الغرفة. صمتٌ يشبه الحلم، ليس له حدود ولا يمكن أن يلمسه، ولم يكن يريده أن يستمر. لو أن صوتاً ينفجر الآن، أي صوت، أي كلمة، حركة باب، سقوط صحن، مواء قطة. لو أن صوتاً يجرح الصمت يمكن أن ينقذه، أما أن يستمر هكذا فإن رعباً يتسرب إلى قلبه، يحس بثقله يطبق عليه حتى يكاد يخنقه!

بعد فترة أحسها طويلة متناهية الطول، سمع صوت خاله:

- كأنها قصة يعقوب وابنه يوسف... تفضلي أنت وابنك، اغسلوا وجوهكم. قال ذلك بلهجة ضاحكة، وأضاف: بعد أن تغسلي وجهك نتفاهم!

رفع رأسه ينظر إلى أمه. رأى بقايا دموع في عينيها. كانت

حزينة إلى درجة أنها بدت ناحلة، مريضة، لكن كلمات خاله رسمت ابتسامة شاحبة على زاوية فمها، فأصبحت الآن مستعدة لأن تنتقل إلى جو جديد، مسحت عينيها بظهر يدها، وقالت:

- اللهم اجعله خيراً.

وبنفس اللهجة الضاحكة والتي تحمل شيئاً من السخرية، قال الخال:

- هل شبعت بكاءً؟ ولم ينتظر جواباً، إذ تابع: والله يعقوب لم يبك هذا البكاء! وتوقف ثانية صغيرة ثم قال:

- سامح رجع من الجهادية وأمه تستقبله بدموع الفرح!

وردّت كأنها لا تتحدث لأحد:

- منذ الصباح أحسست أن شراً سيقع. الحق عليّ.

فسألها مازحاً:

- كيف كانت أحاسيسك؟

- أنت لا تعترف بهذه الأشياء، لكن رأيت بالحلم أن سامح أكمل الختمة، وأن الشيخ والأولاد عملوا له زفة... دائماً في الأحلام الأشياء تصبح عكسها. كان يجب ألا يذهب إلى الكتّاب هذا اليوم!

- وتلمسته أمه، كأنها لا تزالِ تعتبره مفقوداً، أما خاله فقد ظهرت على وجهه علامات لامبالاة واضحة، وبعد لحظات صمتٍ قال:

- يا جماعة فكّوا إسار هذا الطفل. وأشار إليه وأضاف:

لقد تورط أخواه. أما هذا الصغير فأنا مستعد أن أسجله في المدرسة، لا كتّاب ولا مسخرة. اتركوا واحداً فقط يتعلم. كلهم كتّاب ودكاكين؟

- كل شيء قسمة ونصيب.

- لا قسمة ولا نصيب. الذي يريده الإنسان يعمله، والكتّاب مع الأيام لا يطعم خبزاً. هل المهم فك الحرف؟ لازم البشر تتعلم وتدرس، ودكان الحاج يكفيها ماجد!

- يا أخي، قلت للحاج مائة مرة، لكن يصر على أن الكتّاب أحسن، يقول إن أباه وجدّه لم يعرفوا سوى الكتّاب. وإن الأولاد مصيرهم أن يعملوا في نفس الصنعة. المدرسة مضيعة للوقت .هذا رأيه!

- الدنيا الآن غير أيام أبيه وجدّه، الدنيا الآن تغيرت، وسوف تتغير أكثر، وعلى البشر أن يتغيروا. بعد فترة المدرسة لا تكف، يجب أن تقام مدارس أكثر، حتى يستطيع الناس أن يعيشوا مثل الأوادم، أما أن يقول أبي وجدّي فمعناه أن تجمد الدنيا، أن تبقى كما هي، وهذا مستحيل!

- تريد أن تغير الحاج؟ هذا مستحيل!

- يا أختي اتركي الحاج على مزاجه. لقد انتهى، لم يعد منه أي نفع. إنه يمثل القديم الذي ينتهي يوماً بعد آخر، أما الصغار. لماذا فتحوا المدارس. لماذا توجد في الدنيا مدارس؟

- يقول الحاج إن المدارس تعلّم الكفر والإلحاد!

- لا . . . هذا ليس صحيحاً، في المدارس يتعلمون الدين والتاريخ أكثر من الكتّاب ألف مرة!

وباستسلام ردت:

- أنا لا أعرف. . . هذا رأيه!

- يا أختي اطلعوا على كتب المدارس، الحاج مثلي يفك الحرف، يطلع على الكتب، ليسأل الناس!

- ليس لي علاقة، كل شيء بيده!

وتحولت لهجته إلى الغضب. كان يريد أن ينتزع موافقة كاملة. قال:

- أليس حراماً أن يضرب الصغار مثل الحمير؟ انظري إلى خده، اكشفي عن يده، والله لو ضرب واحداً من أولادي نصف هذا الضرب لجعلته الآن تحت التراب. والتفت إلى سامي يسأله: ألم يضربك أنت أيضاً؟ وقبل أن يجيب قال له: لماذا ضربكم؟

حتى تلك اللحظة لم يكن سامي قد تكلم. . . كان يبدو عادياً لا أثر للضرب عليه. وجهه صارم وعيناه تبرقان، ولكن لم تكن لديه أية رغبة للكلام. قال دون اهتمام:

- الشيخ على كيفه، يضرب أو لا يضرب. بسبب وبدون سبب. رجل له مزاج.

- لكن لماذا ضربكم؟

- يقول إننا توقفنا وتحدثنا مع اليماني. هذا ليس صحيحاً. قبل أن نصل الكتّاب بخطوتين كان اليماني ماراً وحوله بعض الناس، ولما دخلنا الكتّاب بدأت الحفلة: اليماني يعلّم الناس السكر، اليماني يعلّم قلة الأخلاق، اليماني فعله، اليماني تركه، وبدأ يصرخ ويضرب.

قالت أمه، تريد أن تبقي للشيخ بعض الكرامة:

- غداً سنرى! سيذهب الحاج ويتأكد بنفسه. لا يمكن أن يضرب الشيخ دون سبب!

قال الخال يريد أن ينهي المناقشة:

- كل شيء راجع لكم، لكن أرى أن تسجلوا الصغير بالمدرسة، وأضاف دون أن يفسح مجالاً لمناقشة جديدة:

- لنأكل الآن قسمتنا، وغمز بعينه وضحك ضحكة مدوية.

* * *

13

سرنا في الظلام صامتين.

كانت أمي تسير في المقدمة. كانت مشدودة العظام، ساهمة النظرات ويغلب عليها استسلام يائس، تزيده رطوبة الليل والسكون الذي يرافق خطواتنا. أما سامي فقد بدا بحركته المتوترة وكأنه يريد أن يحكي كل شيء، لكن صمت أمي يمنعه. أمسك بيدي وشد عليها. شعرت أن يده دافئة وحنونة، وكأنها في هذا الليل تقول: لا تخف!

ظل الصمت يحيط بنا مثل غمامة حتى اقتربنا من البيت، وفجأة سمعت صوت أمي، وقد بدا لي غريباً قاسياً:

- اعتذر لأبيك. قبّل يده وقل له سامحني والصباح رباح!

تعودت أن أقبّل يده، هذا أمر سهل يمكن أن ينتهي في لحظة، ولا يعني شيئاً بالنسبة لي. لكن ماذا في الصباح؟ يجب أن أتوقف وأسألها. حاولت أن أتصور ما يمكن أن يحدث: تراآى لي أبي يقف بالباب. وجهه عابس ونظراته ملتهبة، وما

أكاد أدخل وأسمع ارتطام الباب ورائي حتى أتلقّى على وجهي صفعة، وصفعة ثانية. ويبدأ بعدها العذاب، سوف يسألني عن كل شيء، مثل ذلك الملاك الذي يسأل الموتى، وإخوتي حولي ينظرون إليّ. عيونهم مفتوحة تلتقط كل حركة. سيسألني عن الشتائم التي وجهتها للشيخ، ولماذا ضربته! لا أعرف ماذا أقول له. وإذا سألني لِمَ هربت من الكتّاب، وأين قضيت هذه الفترة. سأقول له إني أخطأت، وأطلب منه أن يسامحني. لكن هل تنتهي الأمور عند هذا الحد؟ والهرب؟ سيهز رأسه بمرارة ويصرخ: لقد ضرب الشيخ إخوتك، ولكنهم لم يهربوا، لماذا هربت أنت؟ ماذا أقول؟ لو لم أهرب لكانت الأمور بسيطة، لن يسألني عن الشتائم. أما الهرب!

سأقول لأبي كل شيء. سأقول له وجدت الباب مفتوحاً، ولم أحتمل الضرب، فهربت!

ليضربني. لم يعد الأمر مهماً بالنسبة لي، ليضربني، لكن سأهرب مرة ثانية. وإذا هربت فلن أذهب إلى التكية هذه المرة. لا أريد أن أرى المهبول أو أقترب منه. سأذهب إلى السوق، أو إلى بستان الآغا. يجب أن يعلم أبي أني أكره الكتّاب، ولا أريد أن أذهب إليه مرة أخرى. . . وإلا سأهرب!

* * *

شعر أن موقفه يتغير، وأبوه يضربه ويصرخ في وجهه، وبعد أن يدمي يديه ينام، وفي الصباح يقوده مثل خروف إلى الكتّاب. يقول للشيخ: اضربه. .اضربه. ويضربه الشيخ أمام جميع

الأولاد، ثم يجلسه في غرفة صغيرة مظلمة، وقد يبعث به إلى الشيخ صالح ليضعه إلى جانب الموتى. ولما وصل هذا الحد شعر بالخوف. أراد أن يتوسل لأمّه، أن يقول لها أن تحميه، أن تمنع أباه من ضربه، لكن لم يشعر برغبة للكلام!

قرر أن يترك الأمور تجري كما تشاء. سيفكر. سيسأل إخوته... أما الآن! قال في نفسه: إذا ضربني فلن أردّ عليه. أما إذا أجبرني على الذهاب إلى الكتّاب مرة أخرى فسوف أهرب. نعم سوف أهرب، وسيرى أبي أيّنا أقوى. وشد على قبضة يده، يريد أن يطرد الخوف، لكنه وجد نفسه يخاف من كل شيء، من الظلام، من أبيه، من الحاج درويش والشيخ زكي... وشعر أنه بدأ يخاف حتى من نفسه!

وتساءل: لماذا يقفون كلهم ضدي؟ ماذا فعلت؟ وفكر أنه تعيس، وإلا لتركوه. ليتركه أبوه وليتركه الآخرون. ماذا لو تُرك حراً؟ إنه لن يزعج أحداً. وتساءل: هل أزعجت أحداً؟ وبدأ يتذكر. قال لنفسه لن أقتل النمل مرة أخرى. أراد أن يقول هذا لأمّه، وأراد أن يقول لها إنه إذا رأى اليماني فلن ينظر إليه، لن ينظر إليه أبداً. ولن يشترك مع الآخرين في ضربه. وتمنى من جديد لو يتركونه. لو تركوه لذهب من توه إلى الفراش ونام. وفي الصباح سيذهب بنفسه لأبيه ويقول له: اضربني يا أبي، لقد أخطأت لم أكن أريد أن تسير الأمور هكذا. لكن لم أحتمل ضربات الشيخ فهربت. لن أهرب مرة أخرى. لا أريد بعد الآن شيئاً.

وعاد من جديد يفكر: بعد لحظة يكون أبوه بوجهه الصلب واقفاً مثل جدار، سينتزعه من أمه ويقول:

- لقد وصلت إلى يدي، سوف أعلمك كيف تهرب من الكتّاب مرة أخرى!

شعر بالتعب يسيطر عليه، ولم يكن يريد إلا أن ينام. أما الأمور الأخرى فقد تساوت بالنسبة له. قال بغضب يائس: ليكن أي شي، لقد تساوت الأمور بالنسبة لي.

كان صمت ثقيل يخيم على البيت عندما دخلوا. الضوء الخارجي يلقي ظلالاً باهتة على الجدران والأشجار. صحن الفواكه مغطى بقماش أبيض، وكأن يداً لم تقترب منه. أما فراش أبيه بوسائده الألف، فقد كانت تلمع بيضاء لم تخدشها أكواع أبيه وهو يتقلب! وشعر أنه يواجه خطراً حقيقياً. إن أباه يختبئ في مكان ما ينتظر وصوله. عندما يراه سيهجم عليه ويمزقه. وسأل نفسه: لماذا يختبئ أبي؟ وأين ماجد وأخواتي؟ هل ذهبوا كلهم؟ لا... سيظهر أبي الآن ويضحك في وجهي ضحكة انتصار وهو يصرخ في وجهي: تعال... تعال!

تلفت، نظر حوله بخوف. كانت الأضواء الشاحبة على الأشجار مثل أشباح تتراقص، وتسخر منه. ثم تراآى له أبوه يقف وراء شجرة الليمون... وما كاد يراه حتى يركض نحوه ويقبض عليه من الخلف... التفت، كان الصمت ما يزال يملأ كل شيء. فكر أن يكون أبوه خارج البيت يبحث عنه. ربما كان عند خالته أو عند عمته.

وتولّته رغبة جامحة لأن يذهب فوراً إلى فراشه وينام. إذا جاء أبوه ووجده نائماً لن يوقظه. ينظر إليه بحقد، ويقفل الباب وراءه بغضب، وهو يردد: في الصباح سترى!

لكن الأمر ليس سهلاً مثل مرات سابقة كان يتركه لينام. هذه المرة سيرفع عنه الغطاء ويمسك كتفه وينتزعه من فراشه. ومع الهزة القوية يصرخ أبوه: تعال أيها الأمير المتمرد.. تعال، إن بيننا حساباً ويجب أن نسويه الآن!

وما يكاد يفتح عينيه حتى يتلقى الضربات من كل ناحية على وجهه، على يديه، على صدره. وإخوته ينظرون إليه. وأمه تبكي! وبعد أن يضربه أبوه ويتعب، سيقول له: إذهب أيها الكلب إلى فراشك وغداً سنرى!

هكذا مرت الأفكار والأسئلة في رأسه. تصور في النهاية أنه سقط على الأرض والدماء تنزف من حلقه والجميع ينظرون إليه دون اهتمام.. انتفض. استعاد كلمات خاله، قال خاله: إن الإنسان أقوى من كل شيء! قال خاله هذه الكلمات وأمه تردد: الحياة صعبة، وعلى الإنسان أن يساير. نعم إنه يتذكر الآن الكلمات. يتصورها مضيئة، وتجعله قوياً! وفي لحظة قال لنفسه بتصميم مجنون: ما أقوى سامح سوف يستطيع أن يحتمل، لن يقول كلمة واحدة... ولن يبكي!

أقفلت أمه الباب بهدوء. فشعر وهو يقف إلى جانب البركة وظلال الضوء تتراقص حوله، أن أباه سيظهر فجأة، لكن الصمت الذي يخيم على كل ما حوله، جعله يحس أنه وقع في

مصيدة. لقد تآمرت أمه عليه. جرته إلى البيت. والآن ستنادي على أبيه وتسلمه له!

نظر إلى سامي يستنجد به، لكن وجده ساكناً مستقراً مثلما هو دائماً: لا يتكلم، قاسي الوجه لا يعطي! هل يسأله عن أبيه؟ لكن الأمور ستكون أسرع من تفكير سامي وإجابته. هل يسأل أمه؟ وإذا سألها هل تجيبه؟ قال لنفسه: ما فائدة الكلمات الآن؟ وقبل أن يحضر الكلمات التي كان يريدها جسراً للسلام بينه وبين كل الأشياء خاصة أبيه، سمع صوت أمه:

- إذا وجدت أباك صاحياً، ستذهب وتعتذر. أما إذا كان نائماً...

وقبل أن تكمل عبارتها، وجد نفسه يقول:

- أمي... أريد الآن أن أذهب لأنام!

وأحس بشيء من الراحة. قد يكون أبوه نائماً، لتمضي هذه الليلة فقط، وبعدها ستتغير أمور كثيرة، إن أمنيته الوحيدة أن لا يرى أباه.

وسأل نفسه: هل يكون أبي نائماً؟ وعاد يفكر... كيف ينام قبل أن يراني ويصفي حسابه معي؟ ستكون عيناه مفتوحتين مثل فنجانَي قهوة، كما تقول أمي، ولا يكاد يسمع صوتي، حتى يهب من فراشه، ويخرج إليّ بثوبه الأبيض الفضفاض، ويبدأ حسابه!

قد يكون نائماً! هل ينام مبكراً إلى هذه الدرجة؟ هل ينام

قبل أن يطمئن.. قال لنفسه: لكن أمي تقول قد يكون نائماً! أنا لا أعرف شيئاً.. المهم أن لا أراه.. وماذا لو قلت لأمي أن تتركه نائماً؟ أن تتركني للصباح فقط!

لقد قررت أمه كل شيء وحدها. لو ذهب إلى فراشه رأساً لاختلفت الأمور، ليذهب، سيعتذر في الصباح.

كان الوقت قاسياً ممتداً لدرجة الجنون. لم يكن الزمن هكذا أبداً، لم يشعر بمثل ذلك من قبل، ولم يحتمل!

قرر وحده. قرر بسرعة. انزلق بسرعة البرق إلى فراشه، وبدأ ينصت. كان يريد أن يسمع الخطوات القادمة، هل خطوات أبيه... خطوات أمه؟

بدا له الوقت أكثر كثافة إلى درجة لم يتصور أن ذلك ممكنٌ، واستغرب: كيف يكون الوقت مختلفاً إلى هذه الدرجة؟ فعندما ينزل إلى الشارع، أو يذهب إلى بستان الآغا يصطاد العصافير، يحس أن الوقت يمر مثل البرق، يهرب. أما الآن... إن كل خطوة تتحول إلى امتداد لها نهاية له، وكأنها آتية من أقصى العالم أو كأنها في مكانها لا تتحرك.

وجاءت خطوات أمه بطيئة أول الأمر، ثم أخذت تتسارع كلما اقتربت من الغرفة. شعر بالسكينة، إن مجرد مجيء أمه له راحة يحس طعمها في كل ذرة من جسده. ستقول له: نم الآن، وفي الصباح سترى أباك. أما إذا قالت له إن أباك ينتظرك، فسوف يبكي، سوف يتشبث برقبتها، سيقبلها ويقول: إني نائم الآن، كما ترين... اتركيني حتى الصباح فقط.

وإذا أرادت أن تأخذه بالقوة! لا، لا يمكن أن تأخذه... ولن تتخلى عنه بهذه السهولة. وما الفرق بالنسبة لها أن يكون الآن أو في الصباح؟

وهو يفكر فتحت أمه الباب، أطلّت برأسها لتتأكد أنه هناك، وما كادت تراه حتى دخلت وأغلقت الباب وراءها. انفجر في داخله فرح مجنون. فرح لا يعرف كيف طغى على كل شيء. قال لنفسه بثقة صخرية قاسية: أبي نائم... لو لم يكن نائماً لتركت الباب مفتوحاً.. لوقفت عند عتبة الباب وقالت لي تفضل!

نظر في عينيها، نظر إلى وجهها يريد أن يبني سوراً جديداً يحميه من كل شيء، ومن أبيه بالذات. كانت عيناها فرحتين، تتراقص فيها الضحكات. نظرت إليه دون أن تتكلم، وأحسّ أنه قوي، ولا يمكن لأي إنسان أن يتغلب عليه. كان قوياً لدرجة أنه لو رفع قبضته لدمر العالم!

تمنى لو يرى الشيخ زكي. لو رآه لانتزع العصا من يده وضربه على وجهه، على يديه، حتى ينزف ويسقط على الأرض. إن أمه معه الآن. كانت معه في كل وقت. لم تتخل عنه أبداً! لم يعد وجهها شاحباً كما كان. ارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة رائعة، وعاد إلى وجهها الدم، فبدت تحت الضوء وهي تتقدم نحوه كأنها إنسان آخر. ينبثق من الجلد الضامر المشدود الذي كانته قبل ساعة، قال لنفسه: لو أعانقها. لو أرتمي على صدرها، وأطلب منها أن نسافر معاً إلى مكان

جديد لا نرى فيه إنساناً واحداً ممن يحيطون بنا الآن! لا نرى شيئاً واحداً من الأشياء التي تفرّقنا الآن!

كان بوده أن يقول لها أشياء كثيرة، أن يقبلها، أن يبكي، لكن طغت عليه فكرة بيضاء كبيرة. قال لنفسه: سأتعلم بناء المراكب يا أمي، وسوف أبني مركباً لنسافر فيه، سوف نسافر بلا توقف، في بحر كبير، كبير، أكبر من نهرنا عشر مرات!

تتابعت الأفكار في رأسه بسرعة البرق، وغابت، نظر إلى أمه دون أن يقول شيئاً. كان ينتظر كلماتها. ستقول له: لقد عفا عنك أبوك. وسوف تقول له كلمات حلوة، وربما تغيرت أمور كثيرة! إذهب إلى المدرسة يا ولدي بدل أن تذهب إلى زريبة الشيخ زكي! وربما قالت له: سيذهب أبوك منذ الغد إلى الكتّاب، لا ليؤنب الشيخ، لكن ليضربه. نعم يضربه.

وعبرت رأسه أحلام زاهية: سيقول أبوه للشيخ: أنت قاسي القلب، ظالم... كيف تضرب الصغار؟ أنا لا أتكلم عن أولادي فقط... أنا أتكلم عن الجميع... ويشير أبوه إلى الأولاد، فينهضوا، ويصرخ في وجه الشيخ. ابتعد عن الباب يا خنزير. أنت كلب أعور، لا تعرف شيئاً سوى الضرب... هؤلاء الأولاد سيذهبون إلى المدرسة... أتسمع ما أقول!

ويذهب الجميع إلى المدرسة. وتصور نفسه يسير وسط الأولاد. وعندما يصلون يجدون الأطفال يلعبون في باحات كبيرة خضراء، والمعلمون حولهم يضحكون... إنهم يضحكون تماماً مثل خاله!

وانزلقت أمه بجانبه في الفراش، فاهتز السرير كأنه يضحك، ثم رأى يدها تمتد إلى رأسه، وأصابعها تتخلل شعره. كانت أصابعها دافئة حنونة، ولا تشبه اليد التي مدّتها الليلة الفائتة. وبعد أن استقرت في الفراش، نظرت إليه بحنان وقالت:

- لا تنسَ أن تستيقظ مبكراً، فتغسل وجهك وتذهب لتعتذر. إن أباك غاضب، ولكني قلت له إن الشيخ ضربك بقسوة. ضربك على خدك ويديك. كان يريد أن يراك الآن، كان يريد... وسكتت. نظر إليها طويلاً يحاول أن يقرأ في عينيها ذلك الفرح الرائع. غبطته وقد أصبحت حادة مثل السكين، تخرج من قلبه لتدخل في كل شيء حوله: السقف، الجدران... شجرة الليمون التي تنظر بحزن عبر النافذة!

كان يريد أن يقول شيئاً.. لكن لم يجد كلمات يقولها.. أما في الصباح، فإن الكلمات التي يريدها أبوه، جاهزة، ولا تعني شيئاً بالنسبة له.. إنه يعرف ما يجب أن يقوله. سيقول له: سامحني يا أبي، سأقول له ذلك غداً... أما الآن فسوف أنام في فراشي الدافئ وأمي بجانبي، سأنام دون خوف!

* * *

14

وتنقضي الأيام لم تترك أمي خلالها دواء إلّا وجرعتني منه، أدوية مرة. أدوية لها طعم التراب، وأدوية خضراء كريهة الطعم، وأخرى ليس لها طعم.

بعد هذه الأيام عافت نفسي كل شي: الأدوية واللبن والحركة المهتاجة حولي. شعرت أن قواي تتلاشى، ونوبات الحمى تطبق عليّ. كنت أحسّ أن كل شيء يدور ويتصادم. أصوات تملأ أذني وكأنها دقات طبول داخل غرفة مغلقة. أما الصور التي كنت أراها، فقد بدت لي غامضة، مقلوبة. وفي المرات التي تركت فيها فراشي كنت أشعر أني أمشي على رأسي، وأن الأرض تهتز تحت أقدامي، فأستند إلى الجدار، إلى أمي، إلى السرير، لكي لا أقع. وبدأت الهمسات والنظرات التي تحيط بي من كل ناحية تحمل إليّ كلمات غامضة: خالتي تقول، أو امرأة أخرى، لا أدري، تقول إن عيناً شريرة أصابتني، زوجة خالتي تؤكد أن الأمر لا يتعدى حالة خوف تزول إذا استعرنا طاسة الرعبة من الحاجة نعيمة. جارات أمي

يقلن لها: اكويه، احجميه، احمليه إلى الحاج درويش ليكبْسه، أو احمليه إلى الحاجة نعيمة لتضع له حجاباً!

أضيع في الأدوية والكلمات التي أسمعها، أغمض عيني، أُحسّ أن السرير يهتز، يدور، يصطدم بالسقف. أمسك العوارض الحديدية، أميل إلى ناحية أخرى، لكن الدنيا لا تتوقف عن الدوران لحظة واحدة. الأصوات تخترق رأسي بِدَويٍّ هائل. لا أعرف كيف أقاوم. أضع إصبعي في أذني، لكن الدوي ينتقل إلى الداخل. يصبح ضربات مطارق كبيرة. أريد أن أصرخ... وأحس ملوحة تتساقط على شفتي، وعندما أفتح عيني أرى وجهاً حزيناً وشفتين تتمتمان، ويداً رطبة تمتد إلى جبهتي أو توضع على رأسي!

وتبدأ مرحلة جديدة من الأدوية، لها مذاق الخل والنعناع. وتضعف إرادتي عندما أرى دموع أمي وهي تقول:

- هذه المرة فقط، هذه المرة.

وأقاوم، أصرخ، أدير وجهي إلى الجدار، أبكي، وأمي تحاورني. تدور حولي، دموعها تتوسل. وأشرب وتبدأ الدنيا تدور مرة أخرى. أريد أن أتقيأ. أن أقذف نفسي. أن أقذف كل شيء وأصرخ، وأسمع صوتها يأتي من مكان بعيد.

الحركة حولي لا تتوقف، كأنها دقات طبول، وما أكاد أفتح عيني، أو ما يكاد ينتهي الدوار حتى تبدأ مرحلة جديدة.

تمسك أمي ورقة، وبدبوس صغير تثقبها. ومع كل ثقب

تردد أسماء وعبارات غامضة: العين التي شافت وما صلّت على النبي تَطُق وتُنبُق. . . تَطُق وتُنبُق. وأسمع اسمي بينها. أسماء أعرفها وأخرى لا أعرفها.

وبعد أن تتوقف مرات كثيرة، تحاول أن تتذكر، والدبوس في يدها مثل خنجر مرفوع. . . تقول: عين فلان، وتهوي على الورقة تريد أن تمزقها بالدبوس. وبعد أن تنتهي من ثقب الورقة تحرقها، ثم تذيبها في كوب ماء، وتمسح وجهي وصدري ورجلي حتى الأصابع، وأحس طعم الورق المحروق على شفتي أو في أنفي، وتلتهب وجنتاي، وأمسح حبات العرق المتساقطة بالوسادة.

وتحمل خالتي طاسة حديدية لم أرَ مثلها: عالية في وسطها، كأنها شمعدان، وعلى جنباتها حلقات، وترغمني أمي على أن أشرب منها. وأمسك الطاسة وأضربها على الأرض، فأسمع دوياً يملأ الغرفة، وأرى وجه خالتي ينقبض! «الحاجة لم تعطني الطاسة إلا بعد أن وضعت عندها رهناً، ونذرت للشيخ مجيب خروفاً إذا شفي الصغير!»

وترتفع الحمى، أحس بالسرير يطير في الهواء، يصطدم بالجدران، يسقط من مكان عالٍ، وأمسك بالعوارض! أخاف من السقوط، وأرى وجه أمي حزيناً يمتلئ دموعاً وضراعة. عندما أتطلع إليه مرة ثانية أراه وقد تحول من الأبيض إلى الأحمر، ثم إلى السواد، ويعود إلى الخضرة، ثم يصبح أصفر بلون البرتقال. وأنظر إلى النافذة فأرى ألوان الزرع مثل التراب،

مثل السماء، ليس لأي شيء. الألوان تتراكض، تتداخل، وأسمع أصوات طبول، ورأسي يدور، يدور بلا توقف. الأصوات مثل المطارق. أحس نبضاً ساخناً في صدغي. أرفع يدي لأمنع رأسي من الانفجار. وأصرخ، أقلب كوب الماء، ألمح ابتسامة حزينة على وجه أمي. أسمع صوتها وهي تجمع قطع الكوب المكسور، وهي تردد: فدوى.. فدوى!

ويدخل أبي خائفاً مرتبكاً. أرى وجهه متصلباً مثل الشمع، وحين تهبط يده على جبيني، أحسها ثلجية باردة، وتصل إليّ كلماته المتعبة: لقد تحسّنت.. كم يوم وتشفى!

وتتملكني رغبة لأن أشتم الشيخ، لأن أصرخ في وجه أبي، لكن صوتي يضيع قبل أن يصل، أسمع أمي تقول له:

- اتركه.. إنه يهذي.

وتنتابني موجة من الفرح... لقد تحول الشيخ إلى ذبابة، ذبابة سوداء، خضراء، صغيرة، أدوسها بقدمي فأسمع صوت انسحاقها عندما تتمزق، ويتلاشى كل شيء.

السرير يرتفع، يصطدم بالسقف، يسقط على الأرض، أتشبث بالفراش، بالعوارض، لا أريد أن أسقط. وتمتد يد أمي تمسح العرق، وتردد كلمات غامضة، تأتي من مكان بعيد.. بعيد. أنا لست مريضاً، لا يمكن أن أكون مريضاً. أنا لا أخاف من أحد. الشيخ زكي ذبابة، الحاج درويش ضفدعة مفقوءة العينين، أما الابتسامة على شفتيه فإنها تشبه كومة الزبل. أرفع رأسي وأتقيأ. تحمل أمي طشتاً صغيراً كان تحت السرير،

وتخرج من جوفي مياه صفراء، خضراء، زرقاء، لا لون لها، فيها كل الألوان. أشعر بالتعب، أريد أن أصرخ. أن أنام، أن أركض. أن أدمر الكتّاب وأدوس الشيخ. أن أبصق في وجه الحاج درويش. أن أشتم أبي. لا أريد شيئاً. لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب!

أفتح عيني، أرى دموع أمي تتساقط مثل حبات المطر. أرى وعاء اللبن وقد تحول إلى تراب إلى طين. ومن النافذة يأتي النور مثل الوهج، قاسياً وله دقات تشبه الطبول، يخرج أبي، يدخل أبي. والشمس كرة عمياء في الخارج. الحقول وأشجار الدلب تشبه كومة من القش. أم النذور تغور في الأرض ولا يبقى منها شيء، والخرق تحولت إلى حبل طويل يلتف حول التكية ثم يتمزق ويسقط في النهر، يسبح في النهر، يتحول إلى حية سوداء، خضراء، صفراء، ليس لها لون. وينساب الحبل حتى يصل رقبة الحاج درويش ويشنقه!

وأسمع صوت أمي، صوت أبي، أصوات كثيرة متداخلة، تأتي من أمكنة بعيدة، تأتي الأصوات مثل دقات طبول رتيبة لها رنين. لا أحب الشمس، لا أحب اللبن، لا أحب شيئاً. وأشعر بالفرح، أفرح حتى أكاد أتقيأ. وأمي تدلك صدري، تدلك رأسي، تضع خرقاً مبلولة فوق جبيني وصوتها يأتي من بعيد!

أفتح عيني، أرى وجه أبي وقد صار مثل ساق شجرة: أسمر، قاتم، أحمر، محروق، مجدور، ويتحول فجأة إلى لون أخضر، أخضر لا يشبه البرسيم، والشيخ زكي يسقط على

الأرض وتظل عصاه ملقاة على الأرض وإلى جانبها طربوش أحمر ومنديل.

وتمتلئ الغرفة برائحة المراحيض، أريد أن أعطس، لا أريد أن أعطس، وأتقيأ على الفراش، القيء كريه الرائحة، لونه أخضر، أصفر، أزرق، لا لون له. والسرير يدور، يدور بلا توقف، يرتفع إلى السقف، يصطدم بالجدران... وأتشبث، لا أريد أن أسقط. أريد أن أسقط، وتمسح أمي حبات العرق عن جبيني، أحس بالفرح والبرودة... وأصرخ... ويتدحرج الطربوش، أركض وراءه وأدوس عليه، وأمسك العصا وأدفنها في الأرض. أحفر لها قبراً عميقاً وأقذف وراءها التراب والحجارة، وبعد أن أنتهي من دفنها، أضحك، أضحك، وأنظر فأرى ابتسامة الحاج درويش... ابتسامة مثل بول الكلاب، مثل ارتطام السرير بالأرض!

أفتح عيني، لا أرى شيئاً، وجه أمي أصبح جزءاً من الجدار، لونه أزرق... أزرق والعيون انطفأت، انسدت، وجه لا دموع فيه، وأفرح، أحس بالبرودة، وأقوم أمشي على رأسي، على يدي، ولا أرغب برؤية أي شيء. كل الألوان أصبحت بلون التراب. وأم النذور تغور في باطن الأرض، تغور تماماً، وأقف فوق الحفرة التي دفنت فيها العصا، وتتملكني رغبة لأن أبول، وأحس الأرض تهتز، تنفر الحجارة من حولي، تنفر مثل ضفادع صغيرة. أمسك حجراً وأقذفه إلى الماء، يغرق الحجر، لا يبقى منه أثر. دوي الصوت يملأ أذني. أسمع أصوات

طبول، طبول كبيرة، طبول كثيرة، طبول زرقاء، حمراء، إنها ليست طبولاً، إنها طبول. . . ولا أستطيع أن أتنفس.

القيء يملأ حلقي، لونه أحمر، أخاف اللون الأحمر، يشبه الدم. أرفع رأسي أرى حبلاً يتدلى من السقف أقفز من السرير. أركض في جميع الأنحاء. أصطدم بالجدارن. أقع على الأرض، أنهض، أقفز إلى النافذة. . . النافذة ترتفع، ترتفع، تصغر، تصبح كوة في السقف، وأبكي، أفتح عيني أرى وجه أمي يمتلئ بالدموع. أهزّ رأسي أمسح وجهي بالوسادة، وأنظر إلى السرير، إلى النافذة، إلى الباب، أتنفس، أتنفس. أريد الآن أن أحارب النوم، أن أخرج من الغرفة، أن أرى الشمس، لا أريد أي شيء، لا أحس بالجوع. . . وأسمع الأصوات حولي، بعيدة أول الأمر، ثم تقترب وتقترب. تصبح دقات طبول داخل رأسي. أهز رأسي، تبتعد الأصوات، تتوقف، وتقول أمي:

- هذه آخر مرة تشرب فيها دواءً!

وأرى ماجد يقف خائفاً عند حافة السرير، وأرى زوجة خالي تبتسم، كانت ابتسامتها حزينة وعيناها تضحكان، وأرى الطاسة على الأرض مثل قشرة البطيخ، وأشعر بالفرح، فرح ملون يشبه الطاووس، يشبه شجرة الليمون، أريد أن أصرخ، أن أترك الفراش، أن أتعرى تماماً. الغطاء فوق صدري مثل ألواح الرصاص. قطعة القماش المبلولة فوق جبيني مركب يغرق دون توقف، يد أمي وهي تعبر جبهتي منشار كبير له دوي الطاحونة.

أبعدت يد أمي، نظرت إلى الجدار، إلى السقف، نظرت

إلى النافذة، كانت أوراق شجرة الليمون زرقاء. . . زرقاء حادة لا تشبه زرقة السماء، ثم تحولت إلى لون لم أرَ مثله من قبل.

لما فتحت عيني مرة ثانية تحول اللون إلى الأخضر الهادئ، أخضر أقوى من الهادئ، أخضر ثابت، أخضر برسيمي، وفرحت، رأيت شيئاً أخضر.

قلت لأمي: أريد أن أذهب لأرى شجرة الليمون.

قالت: ابق مكانك وأنا آتيك بشجرة الليمون.

قلت: أريد أن أرى التراب.

قالت: أحمل لك تراب الحديقة.

قلت: أريد أن أشتمّ رائحة الشمس وهي تنزلق على الليمون والتراب.

قالت: الشمس بعيدة يا بني ويمكن أن تراها وأنت في سريرك.

قلت: أمي. . . أريد أن أغطّس رأسي في البركة.

قالت: الخرقة المبلولة فوق جبينك بركة تغرق رأسك.

قلت: أنا جائع وأريد أن أشبع.

نظرت إليّ وقالت: سأتيك بالطعام!

قلت: أريد أن أطير.

قالت: أنت منذ أيام تحلق، ولا تتوقف عن الطيران.

قلت: أمي أريد أن أصرخ.

قالت: صرخت حتى لم يبق فيك صوت.

قلت: أريد أن أضحك!

قالت: اضحك يا بني وأنت في فراشك.

قلت: أريد أن أمزق الشيخ.

قالت: اتركه إنه يتألم.

قلت: والحاج درويش أريد أن أمزقه.

قالت: اخفض صوتك لكي لا يسمع أحد.

وصرخت، وضحكت بصوت عالٍ، ونظرت إلى ماجد وأمي والجدران والسقف وشجرة الليمون. نهضت من سريري، كانت أمي تجلس على حافة السرير. أمسكت بكتفي وأنا أهبط. سقطت الخرقة المبلولة. مشيت، ضربت الطاسة برجلي. تطلعت إلى شجرة الليمون والشمس والتراب، وضحكت، التفت إلى ماجد. كان لا يزال عند حافة السرير، لم يغير مكانه، لكن وجهه تغير. كانت عيناه تلاحقانني. أردت أن أحتضنه. بصقت من النافذة. سقطت البصقة على الأوراق، تحولت إلى فراشة وظلت تطير حولي.

قلت لأمي: أريد أن أخرج.

قالت: لا تخرج.

قلت: أمي... أريد أن أخرج، أن أذهب إلى التكية وأبصق في وجه الدرويش المهبول.

قالت: يغفر لك الله!

قلت: لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب.

قالت: أنت مريض.

قلت: أمي... لا أريد شيئاً!

وعدت إلى فراشي، كان الفراش رطباً تفوح منه رائحة العرق والقيء، وكانت الوسادة مبلولة تماماً، ولها لون كامد، والعوارض الحديدية للسرير بيضاء بلون الحليب. والجدران وراء العوارض بلون حليب محروق. هدأت الألوان في عيني، استقرت عند لون الحليب: حليب على صفرة، حليب بلون التراب، حليب محروق، حليب أبيض ثلجي.

قلت لأمي وأنا أغرق في فراشي:

- أمي أنا جائع، حضّري لي طعاماً.

وتذكرت أقوال زوجة خالي: عيون شريرة، خوف، قلت لأمي: أنا لست مريضاً... أريد أكلاً، فإذا أكلت شفيت.

أغمضت عيني، سمعت خطوات ماجد تتحرك نحو النافذة، إنها خطوات صغيرة تشبه خطوات القطة تشبه دقات طبل من قطن، فتحت عيني، رأيت ماجد حزيناً ووجهه ناحلاً، حزنت، قلت لنفسي: لن يذهب إلى العطار مرة أخرى! وقررت أن أشفى!

سمعت صوتي يهبط من رأسي إلى جبهتي، ثم يستقر على شفتي، قلت له:

- ماجد، هل أذهب إلى الكتّاب مرة أخرى؟

نظر إليّ وابتسم، ولم يجب، قلت:

- هل أذهب إلى الكتّاب مرة أخرى؟

قال وابتسامة حزينة تطفو فوق وجهه:

- أمي تقول إنك لن تذهب!

فرحت، رفست الفراش، ضحكت. نظرت إلى النافذة. كانت الشمس مضيئة وشجرة الليمون خضراء ولها رائحة المطر، قلت لنفسي: أريد أن أرى الشيخ زكي، ولكن لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب. وتصورته مثل سعدان يقوده نوري، يقفز من شارع إلى زقاق، ومن زقاق لآخر، وعندما ينقر له النوري على الدف الصغير ويحرك في وجهه العصا، يقفز له: كيف تنام العجوز؟ فينبطح ويرفع كرشه. وينقر له ويضربه بالعصا ويصرخ به: كفى، والآن كيف تنام الصبية؟ ولا يستطيع أن يقف، يظل في مكانه وأسمع شخيره والعصا تصعد وتهبط، والدماء تسيل من وجهه، من أنفه، من أسنانه، ونقرات الدف تعلو... وتعلو والعصا تصعد وتهبط.

وأفرك عيني... أرى أمي تدخل حاملة صينية صغيرة، إن طعم اللبن ما يزال مثل التراب، والحساء مثل الماء المغلي لا طعم له، لا أريد أن آكل. أمي تقول يجب أن آكل، لقد فرغ عظمك، يجب أن تأكل! أريد أن أترك الفراش، لا أريد أن أنام مرة أخرى. سأبقى دون نوم. النوم يتعب الجسد، كيف ينام الناس؟ كيف ينام المرضى؟ المرض يخلق النوم... وأعلك قطعة اللحم الصغيرة. إن طعم اللحم ألذ من طعم التراب، أريد

لحماً. وأحس قطع اللحم وهي في فمي وتسقط في معدتي مثل شيء ينتفض في داخلي.. لقد أصبحت قوياً.. أغمضت عيني وضحكت. شعرت بالراحة، شعرت أن قطع اللحم في معدتي ضفادع صغيرة.. هل هي دود؟

وأفرح.

* * *

15

الآن.. لا أتذكر الأشياء التي وقعت.. لا أتذكر، لكن تلك الأطياف التي كنت أراها: وجه أمي المليء بالدموع، صوتها الذي يردد كلمات غامضة... وهذه الرائحة التي لا تزال في أنفي.

وأبتلع ريقي، أحس تحت لساني طعم دواء مر، وآخر مثل طعم التراب، إن شيئاً ما قد وقع، ولكن هل وقع لي أنا؟ لا أتذكر تماماً. والآن... أتقلب في الفراش. أشعر بالتعب يسري في جسدي. أشعر به يتحرك مثل دودة عمياء، يتحرك ببطء ويتغير من مكان لآخر. يخلّف فيّ خدراً. لماذا لا أقف؟ لماذا لا أغادر الفراش؟

أمي تجلس على حافة السرير، تنظر إليّ وكأنها تتأمل قطعة مطرزة، تنظر باهتمام وباستمرار، ليست غاضبة ليست فرحة، إنها ليست أمي، وأتساءل: متى وقع ذلك كله؟

أتذكر أطياف تعبر رأسي كأنها الخيول المسرعة: خالتي

تحمل طاسة وأدوية، أدوية أخرى، من كل الألوان، جارات أمي يقلن لها اكويه. . . وأرتجف. تذكرت عندما مر بدوي في الشتاء الماضي، وأبي يحتضن سامي بقوة. يحتضنه ليمنعه من الحركة، وذاك الغريب الشرس يلفّ المسمار الأحمر الذي أخرجه من النار بقطعة قماش، ويمسك ساعد سامي. . .ولم أرَ شيئاً بعد ذلك. شممت رائحة لحم يحترق، رائحة شواء، وسامي يفرك، يصرخ، ووجه البدوي متخشب، بارد، قاس. ثم الثوم وحبة الحمص. . .والأثر الباقي حتى الآن: طبعة حمراء، لونها يختلف عن باقي الجلد في كامل الرجل اليمنى.

هل مرض سامي؟ وأنا. . . هل مرضت؟

أنا لست مريضاً لكي يأتي ذلك البدوي ويثقب جسدي بمسمار لست مريضاً أبداً. لم أكن مريضاً. أستطيع أن أقفز مثل قط وأركض، ولكن لماذا جرعتني أمي كل تلك الأدوية؟

أشياء كثيرة مرت، مرت مثل خيال: وجه أمي، وجه أبي ويده المثلوجة، ربما لم يكن أبي. قد يكون ذلك الغريب. وحركت رجلي، لا أحس بشيء، ألتفت حولي، ومن جديد تساءلت: هل حصل شيء. . .؟

عندما رجعت مع أمي وسامي، من بيت خالتي، ذهبت إلى الفراش. كنت فرحاً مثل قط وأنا أنام، لا أدري شيئاً بعد ذلك.

وأغمض عينيه يريد أن يتذكر.

إن كل شيء حلم، ولكن هل يجر الحلم معه الأدوية واليد

المثلوجة والدموع؟ ما تزال المرارة تملأ فمه، لا يمكن أن يكون ما حصل مجرد حلم، يجب أن يسأل أمه عن كل شيء!

فتح عينيه، نور الشمس يملأ الغرفة، شجرة الليمون زاهية الخضرة كأنها حقل برسيم. أمه ما تزال جالسة على حافة السرير. لم ير الطاسة، لم ير طاسة من أي نوع. رأى كوباً إلى جانب السرير. كان الكوب مليئاً بسائل أخضر. إن شيئاً ما قد وقع... وإلا لماذا ينام حتى هذه اللحظة؟ ولماذا تجلس أمه بجانبه على السرير؟

حاول أن ينهض، لكن تعباً منعه من الحركة. هل ضربه أحد؟ إن التعب الذي يحسه الآن يذكره بالمعارك مع الأولاد في الحارة. معارك تبدأ ولا تنتهي. يسقط مائة مرة، يقف مائة مرة، لأنه لا يريد أن ينهزم، لكن في الليل يحس بالتعب. وتساءل: هل تعاركت مع سامي؟ مع أولاد الحارة؟

لقد حصل شيء ما، ليسأل أمه.

بعد تفكير استقر على أن يسألها. ابتلع ريقه وقال:

- أمي... أريد ماءً.

نظرت إليه كأنها تراه لأول مرة. اقتربت منه، رفعت يدها على جبينه. ابتسمت ثم قالت:

- سأحضر لك حليباً، بدل الماء!

- إنني عطشان، وأريد ماء.

- الحليب أفضل، يجب أن تشفى بسرعة!

- وهل أنا مريض يا أمي؟

- بدأت تشفى... كم يوم وتقوم!

- كم يوم؟

- ثلاثة أو أربعة أيام.

- ولكن لماذا؟ أنا لست مريضاً.

- إنشاء الله يا ولدي!

- نظرت إليه بفرح هادئ يحسه الإنسان دون أن يراه. ثم قالت:

- مت ورجعت يا ولدي... لكن الآن... وسكتت.

امتدت يدها تربت على شعره.

حاول أن يفهم لماذا هو مريض، وهل مرض إلى الدرجة التي تتحدث فيها أمه عن الموت؟ إن أمه تخاف من كل شيء. من نظرات أبيه، من الشيخ صالح، من الظلام في بعض الأحيان. قال لنفسه: أنا لست مريضاً.

أنا لا أخاف من الظلام والفئران!

بعد فترة صمت طويلة، سأل أمه من جديد:

- متى مرضتُ يا أمي؟

- من تلك الليلة، ارتفعت حرارتك وأصابتك الحمى، ولا أدري أي شيء آخر. وبعد تفكير قالت: أصابتك عين، يا ولدي!

- وما هي العين... يا أمي؟

- إن عيناً شريرة رأتك وأنت ذاهب مع إخوتك إلى الكتّاب وحسدتك!

ولم يفهم شيئاً، تذكر بمرارة الكتّاب، واليماني، وتصور عين الشيخ زكي. إن عيونه شريرة، وإلا لماذا كان ينظر إليه بهذا الشكل المخيف. سألها:

- يمكن عين الشيخ زكي!

ولم تستطع أن تقول شيئاً، بعد لحظات صمتٍ قالت تخاطب نفسها:

- عين الحسود فيها عود!

وتصور عصا الشيخ وقد انغرست في عينه. انفقأت العين. سال منها الدم. وشعر بالراحة وهو يتصور الشيخ بعين واحدة. الشيخ صالح أعور، الشيخ زكي أعور. هل كل الشيوخ هكذا؟ سأل أمه:

- هل أذهب مرة أخرى إلى الكتّاب؟

- المهم أن تشفى. وبعد فترة صمتٍ قالت كأنها تخاطب نفسها: يمكن الكتّاب هو الذي مرضك، وفرح لدرجة أنه تمنى لو يبقى مريضاً. أراد أن يقول ذلك لأمه، لكنه ترك الفكرة تتلاشى. وفكر بالتكية والشيخ مجيب. سألها:

- أمي... عندما مرضت هل وضعت خرقة على أم النذور؟

- ثاني يوم مرضك أرسلت سامي وماجد، ووضعنا خرقة. ونذرت للشيخ مجيب خروفاً!

- لكني وضعت خرقتين، واحدة للشيخ صالح والثانية للشيخ زكي. . . ولم يحصل شيء!

وندم على اعترافه، لو أنه حفظ السر في قلبه، نظرت إليه بدهشة وسألته:

- لماذا وضعت الخرق؟

- عندما ذهبت أول يوم إلى الكتّاب، ورأيت الشيخ زكي يضرب الأولاد، خفت أن يضربني، فوضعت خرقة على أم النذور، ورميت نقوداً على التكية!

- وأي شيء طلبته؟

- طلبت ألا يضربني الشيخ. ولم يندم على هذه الإجابة، وعادت تسأله:

- والشيخ صالح؟

- قلت لأم النذور إني لا أريد أن أموت!

ولاحظ أن وجهها يتقلص، أشاحت بعينيها، نظرت إلى النافذة بكآبة، وبعد فترة صمتٍ طويلة سألته:

- وهل ذهبت وحدك إلى التكية؟

- نعم!

- لماذا لم تقل لي؟

- لأنك لم تسأليني!

وتاهت أمه في أفكارها. سمع في الخارج ضجة إخوته، وما كادوا يِدخلون حتى انتعش الجو وتغير. رأى سامي يضحك

بفرح، وهو ينظر إليه. كان يريد أن يحكي شيئاً. وبعد تردد سمعه يقول، وكأنه يوجه الكلام إليه:

- أمي... احزري ماذا حصل للشيخ؟

- خير إنشاء الله!

- لا احزري.

وتعلقت عيناه بفم سامي، يريده أن يتكلم بسرعة، إن مصيبة كبيرة حلت بالشيخ، وإلا لما ظهرت الابتسامات الكبيرة على وجهه. تصور الشيخ قد مات. تصوره ميتاً تماماً، والحجارة فوق صدره وعلى وجهه. تصور الشيخ صالح والتابوت وطاولة الغسيل. شعر بالاشمئزاز، بالحزن، قال في نفسه إن أمي على حق... دائماً تقول: الظالم له يوم. جاء يوم الشيخ زكي. مات، والغريب أن الشيخ صالح سوف يغسله ويدفنه. سوف يلقي الحجارة الكبيرة على صدره. ولكن متى يأتي دور الشيخ صالح... قال بفرح... إذا مات الشيخ صالح ينتهي الظلم وتنتهي القسوة.

فكر بهذه الخواطر في لحظة، لكن عينيه لم تفارقا شفتي سامي، كان يريده أن يتكلم... وجاء أخيراً صوت سامي واضحاً بطيئاً:

- عينه اليوم مثل الشوندرة، حمراء، حمراء مثل الدم، ومتورمة!

قالت أمه بأسف:

- الله يشفيه.

قال سامي، يريد أن يجسد لأمه الصورة أكثر:

- متورمة يا أمي، ولا يستطيع أن يرى... ليس ذلك فقط وإنما منذ الصباح وهو يضع عليها منديلاً مبلولاً، ويصرخ في الأولاد، وأثناء الصمت يئن!

وضم سامي قبضته، وضعها على عينه، ثم نفخ صدره وخديه، وأضاف وهو يحاول أن يقلد الشيخ:

- اخرس... اخرس أنت وهو، داهية تسمّك، لقد جلبتم إليّ المرض يا خنازير... والله عندما تشفى عيني سيأكل واحد منكم فلقة!

وخرج من الغرفة وضحكاته ترن... وأمه تتابع المشهد بابتسامة حزينة، أما هو فقد قال في نفسه: ربما يموت الشيخ من عينه.

* * *

16

بلهجة غاضبة رفضتُ أن أشرب الدواء، قلت لأمي: هذا الدواء يشبه السم، ومرارته تزيد في مرضي. ثم أدرت وجهي إلى الجدار؛ بإصرار لا حدود له. ودون أن أنظر إليها قلت: لقد مللت الدواء والفراش، وإني أكره الشيخ زكي والكتّاب وكل شيء.

انتظرت فترة لأرى وقع كلماتي.. لكن صمتاً قاسياً وطويلاً امتد بيننا. ولم أعد أعرف كيف أتحدث مع أمي من جديد دون أن أشعر بالإهانة.

سمعت خطواتها تبتعد. كانت خطوات بطيئة وحزينة. وما كادت تتجاوز الباب وتغلقه وراءها حتى شعرت بالندم. وددت أن أركض وأنادي عليها، لكن الكراهية التي كنت أحسها تلك اللحظة تجاه الشيخ زكي، جعلت كل شيء مستحيلاً! كنت أمتلىء تصميماً على أن لا أذهب إلى الكتّاب.. حتى لو بقيت مريضاً!

نظرت بحقدٍ مجنون إلى كوب الدواء، وما كدت أراه ينظر إليَّ بذاك التحدي، حتى نهضت من فراشي وحملته وركضت إلى النافذة. كانت تراودني رغبة لأن أحطم شيئاً ما. ووجدت نفسي أقذف الكوب بعصبية، وتلقت شجرة الليمون الكوب والدواء. تناثر الدواء على الأوراق، تساقط بسرعة أول الأمر، ثم ببطء، أما الكوب فقد ارتمى مثل قط ميت في الحوض.

ظللت عند النافذة أتطلع في الفراغ، ولم أسمع أمي وهي تدخل. وعندما امتدت يدها إلى كتفي أصابتني رعشة، فتراجعت قليلاً، ثم سمعت صوتها خائفاً مرتبكاً: بسم الله الرحمن الرحيم. وساد السكون من جديد.

كان سكوناً يولد في النفس فرحاً غامضاً. كنت أشعر به لحظتها، وأشعر بثقة تجعل شيئاً في داخلي يرقص.

ومرت في رأسي أفكار كثيرة، وما كدت أنظر إلى أمي حتى بدت لي راضية، وفي عينيها ذلك البريق من الرغبة في أن تمنح شيئاً. كانت ابتسامة صغيرة ترتاح على شفتيها. ابتسمت لها، وقلت باستسلام:

- أمي.. لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب، مرة أخرى!

أجابت ونبرات صوتها تؤكد أنها لا تعني ما تقول:

- وهل تبقى في الشارع يا ولدي؟ يجب أن تتعلم. أبوك يريدك أن تتعلم!

- سوف أتعلم في البيت. سأقرأ مع سامي.

- ولكن سامي يحتاج إلى من يعلمه. وأضافت بلهجة

إغراء: وأنت أشطر وتتعلم بسرعة أكثر منه إذا ذهبت إلى الكتّاب.

- إذن أذهب إلى المدرسة.

- سوف نرى.. المهم الآن أن ترمي المرض وراءك!

أردت أن أصل إلى قرار. قلت:

- أمي.. أنا لا أشفى إذا أردتم أن أذهب إلى الكتّاب.

لا أعرف كيف تجمعت الكلمات في تلك اللحظة. لم أكن أقصدها، لكن شعرت في أعماقي بالراحة. وتصورت أن المرض حالة يمكن للإنسان أن يتغلب عليها إذا أراد.

وساد بيننا الصمت من جديد.

بعد فترة وجدت أمي تمسك يدي وتقودني إلى السرير. جلسنا على حافته. نظرت إليَّ وهي ترفع رأسي تحاول أن تتشرب عيونها كل خلية في وجهي.. قالت:

- اليوم بعد الظهر نذهب إلى الحاجة نعيمة. واستمرت كأنها تخاطب نفسها: أنا متأكدة أن مرضك بسبب العين. ثم نظرت إليَّ وتابعت: سوف نضع لك حجاباً، وإنشاء الله تشفى.

حاولت أن أقاوم، لكن إصرار أمي كان واضحاً. قلت لها:

- أنا لأ اشعر اليوم بالمرض.

- ولكن انظر كيف تبدو شاحباً.. لقد هدك المرض.

- لقد شفيت يا أمي، وأستطيع أن أفعل أي شيء.

إنشاء الله، الحجاب سيحرسك. وفي محاولة لإقناعي أضافت: إن الكثيرين من غير المرضى يحملون الحجب. إن الحجاب حارس من العين الشريرة.

وإزاء إصرار أمي، أردت أن أكسب نصف المعركة، وأترك لها نصفها. قلت:

- اذهبي وحدك، أما أنا فسوف أبقى في البيت!

- يجب أن تراك الحاجة نعيمة، سوف تقرأ لك، ثم تكتب الحجاب.

- وهل يجب أن تراني؟

- كيف يمكن أن تعمل الحجاب، دون أن تراك؟

- ولماذا يجب أن تراني؟

- الحجب يا ولدي أنواع، نوع للمرض، نوع للعين، نوع للحبل. وشعرت أن ما قالته غير مناسب، لكن قالته دون وعي، وأرادت أن تتجاوزه بسرعة قالت: يجب أن تراك. يجب أن تقرأ على رأسك.

* * *

ما كاد الظهر ينقضي وتميل الشمس قليلاً نحو الغرب، حتى كانت أمي قد استعدت: جاءت جارتنا أم محمد وسمعتهما تتحدثان بهمس، ثم غابت أمي قليلاً، ولما رجعت كانت تحمل كيساً لا أعرف ما فيه. وبعد قليل بدأنا رحلتنا باتجاه الحاجة نعيمة!

عبرنا الجسر، وسرنا باتجاه سوق الجمعة، وقبل أن نصل

السوق انعطفنا في زقاق جانبي، قادنا إلى مفارق ثلاثة، وانعطفنا مرة أخرى نحو اليمين، وقطعنا مسافة طويلة، وصلنا إلى زقاق في بدايته قنطرة، وما كدنا نتجاوزها حتى شعرت أن الظلمة الخفية المتسربة من الزقاق تولد انقباضاً في النفس، وكأن رائحتها المتفاعلة مع الجدران والبشر والأشياء تزحف بهدوء وتحمل معها شيئاً من الرهبة والغموض.

توقفت أم محمد ونظرت حولها، لا أدري هل كانت تحاول معرفة ما إذا كان أحد يتعقبنا أم لتتأكد أنها وصلت ولم تخطئ. وبعد أن اطمأن وجهها ونظراتها، دقت الباب الذي وصلناه، وبعد لحظات كنا نسمع صوتاً صغيراً، ثم ينفتح الباب.

دهمتنا رائحة حادة ومفاجئة عبقت أنوفنا في تلك الساعة المسائية الكئيبة، فولدت فيّ الدوار والرهبة. كانت رائحة البخور والهواء المحبوس والأكل وأشياء محروقة وعطور. ومن أعواد البخور المحترقة والمشتعلة في أماكن متعددة يتصاعد دخان أزرق، يتلوى في الهواء الداكن، فيجعل الرؤيا، إذا تعدت أمتاراً قليلة، مشوبة بالخيالات والغموض، ويجعل الوجوه متطاولة ممحية المعالم وكأنها جزء من الدخان.

تشبثت بأمي أريد أن ألتصق بها، وما كادت العيون ترانا حتى هدأت الحركة، توقفت للحظة، وبعد أن أشارت إلينا الحاجة أن نجلس في مكان غير بعيد، استعادت الحركة دورتها.

الحاجة نعيمة امرأة تجاوزت الخمسين ببضع سنوات، تجلس في صدر غرفة كبيرة، تبدو بجسمها المترهل وكأنها لم تفارق مكانها منذ سنوات. تضع على رأسها منديلاً أبيض يتدلى على كتفيها حتى الخصر أو دونه، وبيدها مسبحة طويلة. . . طويلة إلى درجة لا تعرف لها بداية أو نهاية، نظراتها حادة واثقة، شفتاها خطان رفيعان يشيران بخجل إلى مكان الفم، وإلى جانبها أشياء بينها قرآن ومبخرة. وفي أركان الغرفة، وعلى مسافات غير متساوية تجلس مجموعة من النساء، بأعمار متفاوتة وبأشكال متفاوتة: امرأة مسنة ومعها فتاة صبية. امرأتان متوسطتا العمر. ثم امرأة ومعها طفل صغير. وتجلس مقابل الحاجة وقريبة منها امرأة ليست كبيرة وليست قصيرة ولم يظهر لنا منها سوى جانب وجهها!

كنا نسمع بعض الكلمات، كانت كلمات غامضة، بطيئة، متداخلة، وبعض الأحيان سريعة متلاحقة يتبعها صمت لا يسمع خلاله سوى صوت المسبحة، وهي تتحرك برتابة تشبه سقوط قطرات من المطر على صفيح، ثم أدعية، وانتهى الأمر، إذ قامت المرأة وقبّلت يد الحاجة ووضعت فيها شيئاً والحاجة تهمس بكلمات غريبة.

وتلفتت الحاجة نعيمة نحو أم محمد، حيّتها بحرارة مصطنعة وسألتها عن أمي. وبعد أن رددت اسم الله واستغفرته مرات وعيونها نصف مغمضة، دعت المرأة الشابة لأن تقترب منها، فتقدمت المرأتان معاً. جلست الشابة مقابل الحاجة

وقريبة منها، وبجانبها المرأة المسنة التي تبدو أنها أمها. وبعد كلمات غامضة لا تكاد تسمع، سألت الحاجة:

- كم مضى على زواجها؟

وتجيب المرأة العجوز، وكأنها مستعدة للسؤال:

- سنتان وسبعة شهور.

- سنتان وسبعة شهور؟ وتصمت، وبعد قليل تضيف: لازم نعمل نذراً للشيخ مجيب، وبعد النذر سأعطيك دواء، دواء محلولاً في الماء ومقروءاً عليه، وعند مفارق التكية تلقي طاسة من هذا الماء، وتمشي بسرعة دون أن تلتفتي، وثاني يوم ديك أسود، تأكلين منه الفخذ وتلقين الباقي عند أم النذور. يجب أن تتم العملية عند الفجر، قبل شروق الشمس. وإنشاء الله يصير خيراً!

وتقول المرأة المسنة، في الوقت الذي تظل الصبية صامتة:

- إنشاء الله خير، وبعد لحظة تسأل: ألا تحتاج إلى حجاب؟

- جربي الآن هذه الطريقة، وبعدئذ سنرى.

- ألا تعملين لها شراباً أو دهوناً؟

- لا يجوز أن يُعمل كل شيء دفعة واحدة. جربي الآن هذه الطريقة، وبعدئذٍ سنرى!

- أهذا كل شيء؟

- جربي هذه الطريقة وارجعي بعد شهر، وعلى يد الله ويدي ستحبل وتلد.

وتعطي الحاجة نعيمة للمرأة زجاجة بنية اللون، كانت موضوعة إلى جانبها وتقول: عشر نقط، ثلاثة صباحات قبل الفجر. عشر نقط من طاسة أكبر من الكف. . . لا تنسي!

وتضع المرأة المسنة شيئاً في يد الحاجة، وتغادران!

وتشرب الحاجة من كوب صغير أمامها، إن الذي تشربه يشبه الشاي، وليس ماء. وتنظر إلى النساء الباقيات نظرات فاحصة مدققة. وتلتفت إلى المرأتين المتوسطتي العمر، وتسألهما:

- هل أحضرتما منه أثراً؟

وتجيب واحدة، وهي تنظر إلى الأخرى بشيء من التردد والحرج:

- حتى الآن. . . لا . . .ولكن. وتصمت، تنظر إليها الحاجة فترى ترددها وترى حديثاً في عينيها، وبشيء من الإغراء العصبي تقول:

- تكلمي يا ابنتي. سرك في بئر. . . وأنا لا أستطيع أن أساعدك إذا لم أسمع منك كل شيء!

وتنظر المرأتان إلى بعضهما، ثم إلى الحاجة. تقول الأولى:

- الله يسترك يا حاجة. . . هذا سر بيننا، لا عين رأت ولا أذن سمعت!

- قولي. . . لا تخافي!

- يا حاجة، يا بنت أسيادنا، أول البارحة جاءت أم عثمان واعترفت لنا أن أمه عملت له سحراً. فبعد الزواج بشهور قليلة ذهبت مع أم عثمان عند ساحر، وجلبت سبع حصوات مقروء عليها، وأحضرت كلباً وقطة، وبدأت تضع الحصى في فم الكلب وتخرجها ثم تضعها في فم القطة، وبعد أن انتهت وضعت الحصى في زير الماء، ولما شربت من الماء وشرب هو ابتدأ بينهما الخصام والكراهية، وذاك يوم وهذا يوم، وكل يوم يزيد الخصام وتزداد الكراهية. ولا تعرف ماذا تفعل؟

بعد أن انتهت من سرد القصة، التي كانت تحفظها عن ظهر قلب شعرت بالراحة! نظرت إلى المرأة الصامتة ثم إلى الحاجة، وامتلأت الغرفة بصمت ثقيل، كانت تسمع خلاله الأنفاس.

هزت الحاجة رأسها بأسف. وبدا أنها تفكر تفكيراً عميقاً، ظهر ذلك من شرودها، ومن عينيها اللتين تضيقان حتى لكأنهما مغمضتان، وحبات المسبحة تبطئ وتسرع في غير نظام، وبعد صمت سألت:

- متى وضعت الحصى في الزير؟

التفتت المرأة الأولى التي تحدثت إلى المرأة الثانية تستنجد بها، وسمعت صوتاً ضعيفاً متكسراً يقول:

- منذ ثمانية شهور!

- هل تتذكرين أي يوم؟

وهزت المرأة رأسها علامة النفي، وسألتها الحاجة مرة أخرى:

- وهل أحسست بطعم غريب؟

- لا .

- ومن قال لك؟

- أم عثمان ذهبت معها عند الساحر.

- وماذا أعطته حتى عمل لها ذلك السحر.

- تقول أم عثمان إنها حملت إليه كيساً كبيراً من البندق وكيساً آخر فيه فستق ولوز، كما أنها أعطته نقوداً وعسلاً!

- ألم تعطيه ديكاً أسود؟

- لا . . وعدته إذا طلقني أن تعطيه خروفاً.

وهزت الحاجة رأسها وابتسامة صغيرة تطفو على وجهها، ثم قالت:

- القضية صعبة جداً ولكن. .

وعادت المرأة الأولى تسألها:

- وهل لها حل؟

وأجابت الحاجة بهدوء:

- أنا لا احب السحر، ولكن لكل قضية حلاً، وصمتت قليلاً ثم أضافت: إنها تكلف كثيراً.

وردت المرأة الثانية دون أن تفكر:

- الذي تريدينه يا حاجة، أنت بنت أسيادنا، والذي تأمرين به على العين والرأس!

- الله يقدرنا، لكن الأمر بحاجة إلى وقت، وإلى مساعدتكم!

- حاضرين.

- طيب... أريد أولاً قلامات من أظافر يديك ورجليك، ثم... وصمتت قليلاً وقالت تخاطب نفسها: من أين لنا الآن وسخ الضبع؟ ثم عادت تتحدث إلى المرأتين: هذه عليّ، فإذا انتهينا من هذه المرحلة...

وسألت: ما هو اليوم؟

- اليوم... الخميس

- يوم الاثنين، ليلة الثلاثاء، أريد شمعداناً له سبع فتايل، وإنشاء الله يحصل خير.

- متى تريدين الأظافر يا حاجة؟

- غداً صباحاً تمران عليّ، وسوف نتفق على كل شيء!

- غداً صباحاً؟

وبرد فعل سريع قالت الحاجة:

- غداً صباحاً... هذه الليلة سأبيّت خيرة وسنرى... الآن صار الوقت متأخراً. دائماً في الصباح أحسن، وصمتت قليلاً ثم قالت بصوت بطيء واثق: الله يلهمنا.

نظرت المرأتان إحداهما إلى الأخرى، ثم إلى الحاجة، وقامتا وقد امتلأتا رضاً، قبلتا يد الحاجة، وقالت الأولى وهي تبتعد:

- أي ساعة في الصباح؟

- في الصباح الباكر أفضل... كلما كان أبكر كان أفضل!

وتلفتت الحاجة إلى الفتاة الصغيرة التي فتحت الباب. كانت تبدو صغيرة، ضامرة، عيناها مفتوحتان كأنها تخاف من شيء أو تنتظر شيئاً، قالت لها أن توقد الفانوس، ثم التفتت إلى المرأة التي تحمل طفلاً وسألتها:

- خير يا أم مصطفى؟

وتجيب المرأة. كان صوتها عميقاً وفيه بحة:

- الله يجعلك بخير... الله يطيل عمرك ويديمك فوق رؤوسنا.

- الله يحفظك، خير؟

- الله يجعلك بخير، المحروس صار عمره ثلاث سنوات ونصف، وحتى الآن لا يمشي، وقلت لنفسي ليس لنا إلا الحاجة نعيمة. أخوه تأخر في المشي، أما البنات فقد مشين منذ نهاية السنة الأولى... المحروس لما كان عمره سنة... سنة ونصف كانت صحته زائدة، وبعد ذلك ضعف... وحتى الآن لا يمشي!

وفكرت الحاجة طويلاً... ثم سألت:

- هل أنهى الثلاث سنوات والنصف؟

- بعد شهر، شهرين، ينهي الثلاث سنوات والنصف. قالت المرأة ذلك بتردد، كأنها ليست متأكدة من شيء!

- يجب أن نعمل له أشياء كثيرة: نذر، حجاب، وبعد ذلك أعطيه دواء. وربما كان بحاجة إلى نذر آخر. وإذا تطلب الأمر فسوف أكبّسه ثلاث أو أربع مرات، وإنشاء الله يصير خيراً.

وسألت المرأة بلهفة:

- ما هو النذر اللازم، يا حاجة؟

- يا أختي ثلاث سنوات ونصف ليست قليلة... لو كان عمره سنتين، ثلاثاً، كانت المشكلة سهلة. أما ثلاث سنوات ونصف... وهزت رأسها دلالة الأسف.

- الله يقدرنا على مجازاتك، يا حاجة... ثم ليس لنا غيرك!

- كل شيء بيد الله عز وجل!

- كل شيء بيد الله، لكن عن طريق أسيادي الأولياء.

- الله يقدرنا على خدمة الناس... إنشاء الله يصير خيراً.

- لم تقولي ما هو النذر؟

- بسيطة... يجب أن تمري عليّ غداً... صباحاً... قبل صلاة الجمعة.

- الضحى؟

- أي نعم... الضحى، بعد أن تحمى الشمس، ولكن قبل الصلاة، وسوف نتفق!

- خير... وتقدمت منها المرأة ووضعت شيئاً في يد الحاجة وغادرت!

بعد أن أصبحنا وحيدين مع الحاجة انتابني الخوف. نظرت إلى أمي فوجدتها مضطربة مرتبكة، لا تعرف هل تبقى في مكانها أم تتقدم. نظرت إلى أم محمد تستغيث بها، والحاجة مغمضة العينين وتردد: الله... الله... الله. وأسمع هذه الكلمات طويلة بلا نهاية. وما كادت تنتهي حتى سمعت صوتها مرة أخرى: مدد...مدد. وارتجفت. ارتد رأسها إلى الخلف وبدأت تهزه هزات عصبية سريعة، وقبل أن تفتح عينيها من جديد سمعتها تقول: بسم الله... بسم الله الرحمن الرحيم... استغفر الله العظيم. ثم فتحت عينيها. نظرت إلينا وكأنها فوجئت بنا. أو لم تكن قد رأتنا من قبل. وأخيراً نفضت رأسها كأنها تصحو، وبعد أن اطمأنت التفتت إلى أم محمد وقالت:

- صار زمان، يا أم محمد، وتوقفت قليلاً، ثم أضافت بلهجة جديدة: والله أنا عاتبة عليك.

وبخجل مرتبك أجابت أم محمد:

- الحق معك يا حاجة... ولكن البيت والأولاد. وبعد صمت قصير أضافت: والله دائماً أفكر فيك، وأقول لنفسي أنا مقصرة مع الحاجة!

- هكذا نسيت بسرعة؟ سألت عنك أم رجب وخيرية فلن.. وتوقفت لحظة ثم ضحكت.

- والله ليس صحيحاً... أنا لم أذهب عند غيرك!

- يا أختي اذهبي أينما تريدين، لكن لا تذهبي عند الشحادين، إنهم يسرقون الكحل من العين... وبدون فائدة. أما الأولياء فعن طريقهم تأتي البركات: يشفى المرضى، تزال الكراهية، وتولد المرأة العاقر، وألف مصيبة يمكن أن تحل.

- والله يا حاجة لم أر أحداً... طوال الوقت في البيت، وإذا خرجت فعند أم ماجد، وأشارت إلى أمه ثم أكملت: كلام الناس كثير، يا حاجة، والذي يسمعه يتعب!

- أنا لم أقصد شيئاً، لكن أم رجب مرت قبل أيام... وتوقفت لحظة ثم قالت: الله يساعدها أم رجب عندها كنة، وهزت رأسها بأسف ثم أضافت: لا حول ولا قوة إلا بالله. وخفضت صوتها كأنها تتحدث إلى نفسها، يحتمل أن ساحراً عمل لها شيئاً، سألتها إن كانت قد رأت ابنها يأكل شيئاً غريباً، أو يشرب شيئاً غريباً قالت إنها لا تتذكر. ولكنني متأكدة أن كنتها أطعمت ابنها مخ حمار... وإلا لما صار كل هذا!

ونظرت إلى أم محمد وابتسامة ثقة تملأ وجهها، قالت تخاطبها:

- عملت لها اللازم، لقد أعطيتها دواء إذا شرب ابنها منه عادت المحبة، وانتهت هذه السيطرة التي تفرضها عليه زوجته. وبعد فترة صاحت... قالت: الله يلهمنا لفعل الخير!

وصمتت، ثم نظرت إلى أمي تقرأ في وجهها آثار هذا الكلام، لاحظت أن وجه أمي يتغير ينقبض. وبدا عليها ما يشبه الارتباك. وعندما نظرت إليّ، كنت في حالة من الخوف بحيث

بدت لي الأشياء ذات طعم مر، ولها رائحة كريهة. رأيت في وجه الحاجة عالماً غريباً قبيحاً إلى درجة أني لم أستطع أن أستمر في النظر إليها!

سألت الحاجة أم محمد:

- خير إنشاء الله؟

وبدون أن تتكلم، أشارت إلى أمي، وربما أشارت إليّ، ونظرت إلينا الحاجة وابتسمت. سألت أمي:

- خير إنشاء الله!

وحكت لها أمي عن مرضي. كانت كلمات أمي باهتة، مختصرة، قالت لها إني خفت أو ربما أصابتني عين شريرة. ورجتها أن تفعل شيئاً. واقتربتُ من الحاجة بعد أن طلبت إليّ ذلك. دفعتني أمي بظهري تقربني منها. وسمعت صوتها يردد كلمات غير مفهومة، يتخللها اسم الله، وهي تمر على رأسي. وبعد أن انتهت تفلت في وجهي، وعلى رأسي، وصمتت قليلاً ثم قالت لأمي:

الصغير بحاجة إلى حجاب، وصمتت قليلاً ثم قالت: غداً بعد العصر يكون الحجاب جاهزاً، ونظرت إلى أم محمد وقالت: تعرفين يا أم محمد، حالات الخوف صعبة والحجاب اللازم يحتاج إلى تعب، كما أن فيه خرزة زرقاء وسن ذئب، وهذه كلها تكلف كثيراً. ونظرت إلى أمي وقالت: أم محمد تعرف هذه الأشياء!

وسمعت صوت أمي غريباً فجاً:

- إنشاء الله لا نختلف، هذا الكيس... واستخرجته من مكان لا أعرف من أين ودفعته إليها وأضافت: مقدماً.. وغداً الباقي!

* * *

17

بعد أيام، عند الغروب، كنت أجلس وحيداً عند حافة البركة.

كانت ريح باردة تهبّ من جهة الغرب حاملة معها رائحة الأرض الممطورة، ورائحة أشجار الدلب. ولا تكاد هذه الريح تصطدم بجدران الباحة الداخلية، وتدور حولها دورة صغيرة، حتى ترتد وقد امتلأت برائحة الليمون والريحان والنعناع. فيعبق الجو بلذة مجنونة... وأحس أن شيئاً في داخلي ينفجر!

أرفع رأسي إلى السماء، أرى غيوماً صغيرة متفرقة تتراكض كأنها الخيول. كانت خيولاً بيضاء حقيقية، ولها أعراف طويلة متدلية. لم أر خيولاً في مثل جمالها وروعتها. لم أر، مثل كل مرة أحجاراً كبيرة وسلاحف... كانت كل الغيوم خيولاً. كانت تركض، تتوقف لحظة، ثم تركض مرة أخرى، باتجاه الشرق. كنت أمتلئ برغبات غامضة في تلك الساعة. تمنيت لو أكون حصاناً، وأركض في كل الأنحاء، أو أن أتحول إلى قطعة من الغيوم تعبر السماء دون خوف.

ومع كل موجة ريح جديدة كانت رغبة جديدة تولد في داخلي. كانت تولد ولها جناحان، وفي لحظة أطير وأبتعد. وعندما أعود مرة أخرى، أرى كل شيء حولي جديداً، وكأن عيني تريانه لأول مرة. أوراق شجرة الليمون تكبر وتضيء. أعواد الريحان تزداد خضرة. المداد يتسلق الجدار وكأنه يركض، حتى الأصوات التي كنت أسمعها، كانت تبدو لي جديدة لدرجة أني لم أسمعها من قبل.

لقد تغير شيء فيَّ. شعرت بذلك من الهواء البارد، من الغيوم، من الأفكار التي تشتعل في رأسي.

* * *

وجاء المساء وانقضى، ولم تبق من ذكراه سوى تلك الكلمة الصغيرة التي قالها ماجد بلهجة يمتزج فيها الأسف بالحزن بالفرح:

- لقد مات اليماني. وجدوه ميتاً هذا الصباح، على الرصيف، قريباً من التكية!

ومرت صورة الأيام الماضية.. لقد انقضت فترة طويلة على آخر مرة رأيت فيها اليماني. حاولت أن أتذكر ملامحه، لكن لم أتذكر سوى وجه حزين يمتلىء رجاء وأسى!

وفي تلك الليلة نمت مبكراً. وأنا نائم حلمت بأشياء كثيرة، لكن في الصباح لم أتذكر شيئاً!

وفي اليوم التالي، وقبل أن يولد النور، انزلقت من فراشي. كان مطر خفيف يتساقط على الجدران وشجرة الليمون والباب

الخارجي، فتبدو الأرض داكنة تحت الأضواء الأولى، وتبدو السماء قريبة لدرجة أني كنت أستطيع أن ألمسها لو تسلقت شجرة الدلب.

استندت إلى حافة النافذة المفتوحة. عريت صدري ووقفت. لسعتني برودة الهواء، رفعت رأسي، رفعت وجهي، سقطت حبات صغيرة من المطر على شعري، على أذني، على شفتي. ولما تذوقت المطر، بدا أن له طعماً يفوق كل شيء. وتذكرت الأدوية المرة والأوراق المحروقة، وتذكرت التكية وأم النذور.. ومددت يدي إلى الحجاب المعلق في صدري فوجدته مثل دمل متقيح: شديد الصلابة والخشونة.. تصورته قذراً ويوسخ جلدي وثيابي.

تمنيت لو أخلص من آخر ذكرى لتلك الأيام البائسة، لكن تذكرت كلام أمي، تذكرت رجاءها وهي تلح علي أن أبقيه. قالت:

- احتمله يا بني، إنه يحفظك من أبناء الحرام والزمان الغدار!

وبسرعة.. ركضت إلى ملابسي وحذائي. لبستهما على عجل، وقبل أن تمد الشمس راحتيها على الدنيا كنت أغلق ورائي الباب. وكلمة واحدة تتردد في أذني، دون انقطاع. كلمة قالها أبي ظهر البارحة بعدم اهتمام وكأنها لا تعني شيئاً. قال لي:

- اذهب غداً إلى خالك، ليأخذك إلى المدرسة!

كانت خطواتي قوية وهي تضرب الأرض. وكانت رئتاي تَعُبّان الهواء الذي يأتي من بعيد. وقطرات المطر تتساقط ناعمة صغيرة على وجهي. ومن خلال ذلك كله. كنت أرى الأشياء الأكثر جمالاً وأقرب إليّ.

لما جلسنا إلى الطاولة الصغيرة الواطئة، كنت أحس أن طعم الأكل في بيت خالي له مذاق لذيذ، يختلف عن الأكل في بيتنا.. وأكلت بشهية.. ثم خرجنا.

كان خالي يمشي في المقدمة. وكنا نحن الثلاثة وراءه نسير طابوراً صغيراً، شديد العزم والثقة، وكأنه طابور العائدين من القتال. ولم يكن يفسد الانتصار الذي أحسه والأعلام التي أتخيلها، سوى ذلك الحجاب الذي كنت أحمله على صدري، تحت الثياب قريباً من الكتف اليمنى.

كان سن الذئب المكسور يحتك بلحمي فيولد فيّ حقداً، ويولد حزناً خفيفاً يجعل خطواتي في الطابور بطيئة متعثرة.

عندما وصلنا المدرسة شددت خطواتي، ضغطت بقسوة على الحجاب، أريد أن أنتزعه من مكانه لأهزم آخر الأعداء الذين كنت أراهم!

انتهت

عبد الرحمن منيف

دمشق 1970

كنت أتخيل أنه سوف يستنشق شجرة الرب.

.. أ شدني إلى حافة النافذة المفتوحة .. وجدت بصري يرحل .. يستقي برودة الهواء ، رفعت رأسي .. رفعت وجهي .. سقطت حبة صغيرة من المطر على جبهتي .. على أذني .. على شفتي .. ولا تزال المطر .. يداي إنه لم يعنيه كل شيء .. تذكرت رائحة المطر .. والأوراق [illegible] المبلولة .. وتذكرت [illegible] النافذة ..

وصدت بيدي إلى الجانب الآخر في جسدي .. فوجدته .. شيء يحس تحتي .. [illegible] الصلابة والقسوة .. مضمومة هذا ؟ وتركي جنبه وثيابي ..

تمنيت لو أخلو من آخر ذكرى تلك الأيام البائسة .. كنت تذكرت [illegible] .. تذكرت [illegible] وهي تقول لي إنه يتعب .. قالت :

- إنه يتقلص بحزن .. إنه يخطف من أبناء الوطن والأسماء [illegible] !

وسمعت .. [illegible] إلى صوتي وخطابي .. [illegible] .. وقلت إنه [illegible] على الرغم كنت أجهل [illegible] السبب .. وكلمة واحدة تتردد في أذني .. ودون انقطاع .. كلمة قالها أبي [illegible] بيوم [illegible] تقريبا .. [illegible] .. قال لي :

- اذهب غدا لوحدك .. لن تذهب إلى المدرسة !

كانت خطواتي سريعة .. وصدى تنفسي [illegible] .. وكأنني [illegible] الذي يأتي من بعيد .. وقطرات المطر تتساقط [illegible] صغيرة على وجهي .. [illegible] .. كنت أرى [illegible] أكثر [illegible] .. [illegible] إلى الطرقات الصغيرة [illegible] .. كنت أحس أن [illegible] في [illegible] من الأكل [illegible] .. وأكمل يشرب .. ثم خرجنا .

كانت [illegible] في المقدمة .. [illegible] .. [illegible] والقلق .. [illegible] .. [illegible] الذي [illegible] .. [illegible] .. [illegible] الأطفال [illegible] .. [illegible] .

كانت [illegible] .. [illegible] حزنا [illegible] .. [illegible] في [illegible] تسقط ..

[illegible] المدرسة .. [illegible] خطواتي .. [illegible] .. [illegible] كنت [illegible] !

انتهت



من مؤلفاته

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

خماسية مدن الملح

النهايات

عروة الزمان الباهي

سيرة مدينة

(عمان في الأربعينات)

شرق المتوسط

لوعة الغياب

الرسم والتصميم:
مروان قصاب باشي

الإخراج: آنيا مورينغ

صورة الكاتب:
تفصيل من لوحة
لمروان قصاب باشي

خط الغلاف: محمد قنوع

الإشراف الفني: طباعة وتنفيذ

كما كتب عبد الرحمن عن كتابه «سيرة مدينة» أنه:

«ليس سيرة ذاتية لكاتبه وان تقاطعت السيرتان بسرعة وجزئياً، وفي بعض المحطات».

كذلك أم النذور، وان التقت وتقاطعت ببعض الرؤى والصور التي اختزنها الطفل وسمع عنها، في سنيه الأولى، وفي محيط الكبار وممارساتهم.

ومثلما يكون عالم الطفولة ملحاً وعاصفاً في حياة كل انسان فقد كان هاجساً مقلقاً له. من هنا كانت أم النذور أولى الاعمال التي كتبها وأفرغ ذلك الحزن الدفين وقلق الحياة والموت بالنسبة لعالم الصغار.

في عام ١٩٧٠ كتبت أم النذور مع الاعمال الأخرى التي هي الاشجار واغتيال مرزوق، وقصة حب مجوسية وحين تركنا الجسر وشرق المتوسط، وكان الحظ الأفور للنشر لتلك الاعمال، وأجلت أم النذور مرة بعد أخرى، إلى أن أعاد قراءتها في الفترة الأخيرة دون أي تعديل أو ملاحظة عازماً على نشرها، ولكن...

سعاد منيف

أمُّ النُّــذور

أم النذور، رواية ذلك الطفل في مواجهته الأولى للحياة خارج منزله. عالم الكتّاب حيث الشيخ زكي الذي يقوم بتعليم الأطفال، وأداته الأساسية في التعليم: قضبان متفاوتة الأطوال. إنه رمز لعملية التطويع.

أماكن طالما سمع أسماءها، وتأثيراتها في المجتمع: أم النذور، الشيخ مجيب، الشيخ درويش، النهر، الموت، شخصيات المجتمع الهامشية...

خوف شديد مستبدّ، يواجه الطفل سامح منذ ملامساته الأولى للمجتمع، ذلك الخوف الذي يجعل الجميع خاضعين لقوى ولأساطير ولأوهام تجعلهم عاجزين عن المواجهة، فيتحولون مثل أمه الخاضعة لوالده، كما لتلك المرأة التي تكتب الرّقى أو تحضّر الأدويّة المرة كالعلقم.

رواية أم النذور، من أوّل ما كتب عبد الرحمّن منيف، كأنها بداية لمساره الطويل، تبدأ مع ما اختزنته مرحلة الطفولة.

«أم النذور، هذه الشجرة المقدّسة، حتى الآن، إذا جلست النسوة في باحات البيوت، أيام الصيف والخريف، وهبت ريح من جهة الغرب حاملة معها رائحة الرطوبة، تتنسم كل امرأة رائحة أم النذور، وتغمض عينيها وتتمنى!

والقصص التي تروى عن الأماني المستجابة كثيرة ومتداخلة، ثمارها أكثر من أوراقها... تشفي من الأمراض وتعيد المسافرين وتكشف المسروقات. حتى أن بركات الشيخ وأم النذور أصابت الجميع».

المؤسسة العربية للدراسات المركز الثقافي العربي

ISBN:9953-68-062-0